فلسفة

آرثر شوبنهاور

# تهمة اليأس

ترجمة: الطيب الحصني

صفحة 7

**Arthur Schopenhauer**

# تهمة اليأس

آرثر شوبنهاور

ترجمة: الطيب الحصني






**الكتاب**

تهمة اليأس

**المؤلف**

آرثر شوبنهاور

**الطبعة**

الأولى : 2019

الترقيم الدولي :

**978-603-03-0398-4**

رقم الإيداع :

**1440/7138**

حقوق الترجمة العربية محفوظة

© صفحة سبعة للنشر والتوزيع

E-mail: info@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان : الجبيل . شارع مشهور

المملكة العربية السعودية

**إذا لم أجد شيئاً يقلقني، فهذا في حد ذاته يقلقني.**

آرثر شوبنهاور

# تهيئة المترجم

المقالات المجموعة في هذا الكتاب انتقاها ورتبها «**توماس بيلي سوندرز**» من كتاب (المُلحقات والمحذوفات- Parerga und Paralipomena) الذي نشره شوبنهاور في أواخر حياته عام 1851. وكما يوحي العنوان فإن المقالات ليست تلخيصاً لفلسفة **شوبنهاور**، بل إضافات عليها وإنارات حولها.

**يقول شوبنهاور في فصل «الحِكَم»**: «الحكمة النظرية وحسب والتي لا تُمارس، مثلُ الوردة المزدوجة، تبهجُ الآخرين بألوانها وعطرها الجميل، لكنها تذوي وترحل بلا بذور». في المقالات التي بين أيدينا، إذاً، شيءٌ من الورود وشيءٌ من البذور، فالـ«**حوار عن الخلود**» مثلاً يمكن أن يُعتبر تلخيصاً أدبياً لموقف شوبنهاور من إرادة الحياة بصفتها **الشيء في ذاته**، وكذلكَ الحالُ في ما يخصّ مقالَ (فراغ الوجود). بينما نجد في مقالات (عن التعليم، عن الضجيج، وغيرها) البذورَ التي هي مواقفُه من الحياة كإنسان، وجديرٌ بالقارئ إعمالُ النقدِ في هذه المواقف، خصوصاً في ما يتعلق بموقفه من المرأة.

# ملاحظات حول الترجمة

على الرغم من أن الكتاب الذي بين يدي القارئ هو ترجمة وسيطة عن ترجمة سوندرز إلى الانجليزية، فقد استأنست في أثناء ترجمة العمل بكل ما استطعت الوصول إليه من الترجمات الانجليزية، مستفسراً من العارفين باللغة الألمانية وبموضوع الكتاب حيث دعت الحاجة، ذلك في محاولةٍ لرفع إشكال الترجمة الوسيطة بقدر ما يمكن. وآثرت أن أبقي بعض الاصطلاحات بالانجليزية في المتن بدلاً من إدراجها في الحواشي عندما يكون المفهوم نفسه مشروحاً ضمن المتن، لتجنب ملء الصفحات بالحواشي.

وحدها الحواشي المحتواة ضمن قوسين معقوفين [-] هي من إضافتي، وما تبقى هي حواشي **شوبنهاور**، أو **سوندرز** حيث يشار إليها بـ«**حاشية المترجم**».

حاولتُ، ما استطعتُ، تقريب النصّ من القارئ العربيّ، وأرجو أن أكون قد وُفِّقتُ في ما حاولت.

**الطيب الحصني**

# المحتويات

# عن معاناة العالم

إن لم تكن المعاناة هي الهدف المباشر والأساسي للحياة، فإن وجودنا، بالكامل، يُخفقُ في تحقيق هدفه. من السخيف النظرُ إلى كمية الألم العملاقة التي تملأ كل مكان في العالم - والتي تنبع من الحاجات والضرورات غير القابلة للفصل عن الحياة نفسها - واعتبارها دونما أي هدف ومجرد نتيجة للصدفة المحضة. وتبدو لنا كل مصيبة، في أثناء حدوثها، شيئاً استثنائياً بلا شك؛ ولكن المصائب في الواقع هي القاعدة العامة.

لا أعرف سخافةً أكبر من السخافة التي تروِّجُ لها مُعظمُ أنظمة الفلسفة حيثُ تدَّعي أن الشر ذو صفة سلبية. ليس الشرُّ إلا ما هو إيجابي، فهو قادرٌ على الإشعار بوجوده. ليبنتز، على وجه الخصوص، يجتهد في الدفاع عن هذه السخافة، ويحاول دعمَ وجهة نظره عن طريق سفسطة صريحة وبائسة.[1] وواقع الحال أن الجيد هو السلبي، بكلمات

1. ملاحظة المترجم: قارن مع *Theodicee,* sec. 153 . حيث يجادلُ ليبنتز بأن الشرَّ صفة سلبية، أي هو انعدام وجود الجيد، وأن صفاته الفاعلة والتي تبدو إيجابية هي جزءٌ عارض من طبيعته وليس جوهرياً. فالبردُ، كما يقول، ليس إلا انعدام قوة الحرارة، والقوةُ الفاعلة الناتجة عن تمدد الماء المتجمد ليست

أخرى: السعادة والرضا دوماً تعبران عن حاجاتٍ تتحقق، عن نوع من الألم تمَّ إنهاؤه.

هذا يفسرُ أننا نجد اللذة بشكل عام أقل لذة مما توقعنا، ونجد الألم أكثر ألماً مما توقعناه بكثير.

إن اللذة في هذا العالم، كما قيل لنا، تزيدُ عن الألم، أو ثمة، على الأقل، توازنٌ بين الاثنتين. إن شاءَ القارئ أن يتحقق ببساطة من صحة هذه المقولة، فلهُ أن يقارن بين مشاعر حيوانين أحدهما يأكل الآخر.

إن أفضل عزاءٍ في المصيبة أو أي نوعٍ من البلوى هو التفكيرُ في الآخرين المبتلين بمحنة أسوأ من محنتك، وهذا النوعُ من المواساة متاحٌ للجميع. لكن أيُّ مصير فظيع يعنيه ذلك للبشرية ككل؟!

نحن مثل الخراف في الحقل، تلهو تحت عين الجزار الذي يختار واحداً تلو الآخر ليكون ضحيته. ولذلك فإننا في أيامنا الجيدة نكون غير واعين للشرِّ الذي لربما يخبّئه لنا القدر: المرض، الفقر، التشوُّه، خسارةُ النظر والعقل.

جزء غير قليل من عذاب الوجود يكمن في ذلك، في أن الوقت يضغط علينا باستمرار، لا يترك لنا مجالاً للتنفس، بل يلاحقنا دوماً، مثل مراقبِ عملٍ يحمل سوطاً. وإذا كفَّ الوقتُ عنا يده في لحظة ما، فلا يكون ذلك إلا حتى يسلمنا إلى معاناة الملل.

---

إلا جزءاً عارضاً من طبيعة البرد وليست جوهرية في طبيعته. والواقعُ أن قوة التمدُّد في الماء المتجمد هي زيادة في التدافع بين الجزيئات، وشوبنهاور على حق في قوله أن النقاش برمته سفسطة.

ولكن للمصيبات فوائدها، فكما ينفجر جسمنا إذا زالَ عنه الضغط الجوي، كذلك إذا تعافت حياة الناس من كل حاجة وشقاء وصعوبة، فلو نجح كل ما جربوه لامتلؤوا بالعجرفة على نحو يجعلهم مشهداً من الغباء المنفلت، بل لأصيبوا بالجنون. ويصح القول أكثر من ذلك أن هنالك كمية معينة من الألم أو المشكلات ضروريةٌ لكل إنسان في كل الأوقات. فدونها ثقلٍ كبيرٍ محسوبٍ في أسفل المركبِ لا تتوازن السفينة، ولا تستطيع المسير في خط مستقيم.

من المؤكد أن العمل والقلق والجهد والمشكلات تشكّل الجزء الأعظم من حياة أغلب البشر. ولكن لو تحققت كل الرغبات فورَ ظهورها فكيف يملأ الناس حياتهم؟ ماذا يفعلون بوقتهم؟ لو أصبح العالم فردوساً من الترف والرخاء، أرضاً تفيض بالحليب والعسل، حيث كلُّ روميو يجدُ جولييت فوراً ومن دون أي صعوبة، فإن الرجال إما سيموتون من الضجر أو يشنقون أنفسهم، أو ستحصلُ حروبٌ ومجازر وقتل، بحيث تسبِّبُ الإنسانية في آخر المطاف لنفسها عذاباً أكبر مما تضطرُ إلى تقبله على يد الطبيعة حالياً.

في الشباب المبكر، وعندما نتأمل حياتنا القادمة، نكون كالأطفال في المسرح قبل أن ترفع ستارته، **نجلسُ هناك بمعنويات عالية وننتظر بشوقٍ بدء المسرحية**. ومن النعمة أننا لا نعرف ما الذي سيحصل في الواقع. ولو أننا بصُرنا به، لبدا لنا أحياناً أن الأطفال سجناء أبرياء، محكومون، لا بالموت، بل بالحياة، وما زالوا غير واعين إطلاقاً بما يعنيه هذا الحكم. وعلى الرغم من ذلك، كلُّ إنسانٍ يرغب في أن يعيش حتى يصل إلى عُمرٍ متقدّم، بكلمات أخرى: أن يصل إلى حالةٍ من الحياة يصحُّ

أن نقول عنها: «إنها سيئة اليوم، وستكون أسوأ غداً، وهكذا دواليك حتى يأتي الأسوأ على الإطلاق».

لو حاولت أن تتخيل، على أفضل ما تستطيع، كميةَ البؤس والمعاناة والألم من كل الأصناف الي تطلع عليها الشمس، فسوف تُقرُّ بأنّه كان من الأفضل بكثير لو أنَّ ظاهرة الحياة التي أوجدتها الشمس على الأرض لم تكن أكثر من وجودها على القمر، ولو أنه، هنا كما هناك، لم يزل سطح الأرض في حالة كريستالية.

ومجدداً، يمكن لك أن تنظر إلى الحياة على الأرض على أنها حدثٌ خاسر، يعكّر الهدوء المُبارك الذي يصاحب اللاوجود. وعلى أي حال، وعلى الرغم من أن أمورك سارت على نحو جيد بحيثُ استطعت أن تحتمله، فكلما عشتَ أكثر كلما شعرت بوضوح أكبر أن الحياة، في مجمل الأمر، خيبة أمل... بل خدعة.

لو أن رجلين كانا صديقين في شبابهما، ومن ثم التقيا مرة أخرى بعد أن كبرا، بعد أن فرّقهما عمرٌ، فإن الشعور الأكبر الذي سيراودهما لحظةَ اللقاء سيكون خيبةَ أملٍ كاملة بالحياة برمتها، لأن أفكارهما ستعود إلى الوراء إلى الأوقات التي بدت فيها الحياة جميلة وممتدةً أمامهما في نور الفجر الوردي، ووعدتهما بالكثير، ومن ثم لم تقدم لهما إلا قليلاً جداً. هذا الشعور سوف يهيمن بشكل كامل على كل شيء آخر إلى حد أنهما لن يعتبرا أن من الضروري التعبير عنه بكلمات، ولكن سيفترضه كلٌ منهما من جانبه صامتاً، وسيشكل أرضيةَ كل ما لديهما من كلام.

إن الذي يعيش ليرى جيلين أو ثلاثة أجيال هو كالرجل الذي يجلس بعض الوقت في خيمة الساحر، فيشاهد العرض مرتين أو ثلاث مرات

على التوالي. ولكن الخدع مصممة لكي تُشاهد مرةً واحدة فقط، وعندما تزول جِدَّتُها تتوقفُ عن الخداع، ويزول تأثيرها.

لا يوجدُ شخصٌ يستحقُ أن يُحسد على حظه، ولكنَّ أعداداً لا تحصى من الناس تلقى مصائر تستحقُّ الرثاء.

الحياة مهمة يجب أن تُنجز. ومن الحسن أن يقول المرء (قُضيَ الأمر) Defunctus Est.[2] يعني ذلك أن الإنسان أنجزَ مهمته. ولو أن الأطفال لا يأتون إلى العالم إلا بفعل العقل الصرف وحده، فهل كان العرق البشري سيوجد؟ ألن يفضل الإنسان أن يكون عنده من التعاطف مع الجيل القادم ما يجعله يعفيه من عبءِ الوجود؟ أو — في أقل الأحوال — أن لا يقوم بنفسه بفرض ذلك العبء عليه بدم بارد.

سيُقال لي، كما أفترض،إنّ فلسفتي عديمة الراحة، لأنني أقول الحقيقة. والناس يفضلون أن يحصلوا على التطمينات مفادها أن كل ما خلقه الرب جيد. **اذهبوا إلى القساوسة إذاً واتركوا الفلاسفة في سلام!** وفي أقل الأحوال، لا تطلبوا منا أن نلائم عقائدنا مع الدروس التي أخذتموها. هذا ما سيفعله أرذالُ الفلاسفة المزيفون أولئك من أجلكم. اطلبوا منهم أي عقيدة ترضيكم وستحصلون عليها.

بروفسوراتكم في الجامعة يبشرون، ولا بد، بالتفاؤل، ومن السهل والسائغ إرباكُ نظرياتهم.

لقد ذكَّرتُ القارئ بأن كل حالة من الصحة، وكل شعورٍ من الإشباع، سلبيٌ في طبيعته، أي أنه يتألف من الخلو من الألم، الذي هو

2. [ذاتُ معنيين باللاتينية: 'تمَّ أو انجزَ'، وأيضاً 'مات']

الصفة الإيجابية في الوجود. وبناءً على ذلك فإن أي سعادة في أي حياة ما يمكنُ أن تقاس، ليس بفرحها ومتعها، بل بالمقدار الذي تكون فيه خاليةً من المعاناة، من «الشر الإيجابي». إذا كانت هذه هي وجهة النظر الحقيقية، فيبدو أن الحيوانات الأدنى تتمتعُ بقدرٍ من السعادة يفوقُ الإنسان. فلنتفحص هذه المسألة على نحو أقرب : مهما تنوعت الأشكال التي يمكن أن تأخذها السعادة والتعاسة البشرية، بحيث تؤدي بالإنسان إلى السعي وراء واحدة وتجنب الأخرى، فإن الأساس المادي لها كلها هو المتعة الجسدية أو الألم الجسدي. وهذا الأساس محصور جداً، فهو ببساطة الصحة، والطعام، والحماية من البرد والبلل، وإشباع الغريزة الجنسية، أو أنه يكون انعدام هذه الأمور. وبالتالي، وفي ما يخصُّ اللذة الجسدية، فإن الإنسان ليس أفضل حالاً من الوحش، إلا بقدر ما تجعله الإمكانيات الأعلى لجهازه العصبي أكثر حساسية تجاه كل لذة، ولكنها أيضاً - كما يجب أن نتذكر - تجعله أكثر حساسية نحو كل نوع من الألم. ولكن بعد مقارنته مع الوحش، فكم هي أقوى العواطف التي تتولد فيه! أي فرق لا يقاس فثمة عمق المشاعر وشدتها! وعلى الرغم من ذلك، فإنه في الحالة الأولى، كما في الحالة الثانية، كل ذلك يفضي إلى نفس النتيجة في النهاية، أي الصحة والطعام واللباس وهلم جرا.

إن المصدر الرئيس لكل هذا الشغف هو التفكير بما هو غائب وبالمستقبل، والذي يمارِسُ، في حالة الإنسان، تأثيراً قوياً جداً على كل أفعاله. هذا هو الأصل الحقيقي لكل اهتماماته وآماله ومخاوفه: تلك المشاعر التي تؤثر فيه أعمقَ بكثير إذا ما قورنتْ بأي شيء من المتع والمعاناة التي يخضع لها الوحش. فمن حيثُ قدرته على تأمل الماضي،

والذاكرةِ، والتبصّرِ إلى الأمام، يمتلك الإنسان، إذا صح التشبيه، آلةً لتكثيف متعه وآلامه وتخزينها. ولكن الوحش ليس لديه شيءٌ من هذا القبيل، فمتى تألَمَ يكونُ ذلك وكأنه يعاني الألم أولَ مرة، على الرغم من أن الشيء نفسه لا بدّ قد حصل له مرات لا تحصى. هو لا يملك القدرة على تجميع مشاعره، وهذا سببُ مزاجه غير المكترث والهادئ، وكم يُحسد على ذلك! ولكن **التأمّل** يتدخلُ لدى الإنسان ، مع كل المشاعر التي يثيرها. ولأن الإنسان لديه نفسُ عوامل المتعة والألم، المشتركة بينه وبين الوحش، فإن هذا يطوِّرُ قابليته للسعادة والتعاسة، إلى درجة يدخل فيها الإنسان في وقتٍ ما حالةً من السعادة التي قد تصل إلى حد الموت، وفي وقت آخر يرتمي إلى أعماق الإحباط والانتحار.

لو أكملنا تحليلنا خطوةً أبعد، سنجد إن الإنسان، من أجل زيادة متعه، زاد على نحو مقصود من عدد حاجاته وضغطها، وهي لم تكن في حالتها الأصلية أصعب بكثير من حيث الإشباع من حاجات الوحش. **ولذلك فإننا نجد الترف بكل أشكاله**: الطعام المنمق، واستعمال الكحول والأفيون، والمشروبات الروحية، والملابس الأنيقة، وألفَ شيء آخر مما يعتبره الإنسان ضرورياً لوجوده.

وما يفوقُ كل ذلك أنْ هنالك نوعاً منفصلاً وخاصاً من اللذة، وبالتالي من الألم، الذي أوجده الإنسانُ لنفسه، وهو أيضاً نتيجةٌ لاستخدام قدراته على التأمل. وهذا النوع يشغل الإنسان إلى حدٍّ يتجاوزُ فيه كلَّ قيمة قد تتولدُ عنه، بل يكادُ يتجاوزُ كل اهتمامات الإنسان مجتمعة، وأقصد: الطموح والشعور بالشرف والعار، وبكلمات بسيطة: ما يشغلُ فكره من آراء الناس الآخرين عنه. وهذا يأخذُ ألف

شكل، وكثيراً ما تكون أشكالاً غريبة، ويصبح هذا هدف كل الجهود التي يبذلها والتي لا يكمنُ جذرُها في المتعة الجسدية أو الألم. من الصحيح أن الإنسان – إلى جانب مصادر السعادة التي يشترك فيها مع الوحش – يمتلك لذاتٍ عقليةً أيضاً، وهذه لها درجات متعددة، بدءاً بالهواية الفارغة الأشد براءة أو مجرد الكلام العادي ووصولاً إلى أعلى أنواع الإنجازات الفكرية، ولكنْ لديه أيضاً المللُ الذي يصاحبها، والذي هو نَظيرُ هذه اللذات في صفِّ المعاناة. والمللُ شكلٌ من المعاناة غير معروف للوحوش، على الأقل في حالتها الطبيعية، ووحدها الوحوش الأكثر ذكاءً يظهرُ لديها شيءٌ بسيطٌ من الملل عندما يجري استئناسها، بينما في حالة الإنسان أصبح الملل وباءً حقيقياً. إن حشود البائسين التعساء – أولئك الذين هدفهم الوحيدُ في الحياة هو ملءُ محفظتهم وإبقاءُ رأسهم فارغاً – لتقدمُ لنا مثالاً بليغاً على عذابِ الملل هذا: إذْ تصبح ثروتهم عقاباً لأنها تسلمُهم إلى تعاسة عدم وجود ما يفعلونه. وفي سبيل الهروب من هذه التعاسة يركضونَ في كل الاتجاهات، مسافرين هنا وهناك وفي كل مكان، وفورَ وصولهم إلى مكان ما يتحمسون لمعرفة التسالي التي يقدمها. تماماً كما لو أنهم متسوّلون يبحثون في أي مكان عن صدقة! حقاً إن الحاجة والملل هما عمودا الحياة الإنسانية. أخيراً، يجدر بالذكر أنه في ما يخص العلاقة الجنسية، فالإنسانُ مُلزم بترتيبٍ معين يدفعهُ بقسوة نحو اختيار شخص واحد. هذا الشعور يتحول أحياناً إلى حبٍ شغوف إلى حد ما[3]، ويكونُ هذا الحب مصدراً للقليل من السعادة، والكثير من المعاناة.

---

3. لقد عالجت هذا الموضوع مطولاً في فصل خاص من المجلد الثاني من عملي الرئيسي.

ولكنه، على أي حال، شيءٌ رائع أن مجرد إضافة التفكير تولِّدُ مثل هذه البنية الضخمة والمتألقة من السعادة والتعاسة الإنسانيتين، وتستند هذه البنية أيضاً إلى نفس الأساس الضيق للسعادة والحزن الذي يوحِّدُ بين الإنسانِ والوحش، وتعرِّضه لعواطف شديدة العنف، للكثير من عواصف الشغف، وللكثير من تشنج المشاعر، بحيث يبدو ما لحقَ به من المعاناة مكتوباً – وقابلاً للقراءة – في خطوط وجهه. ولكن على الرغم من ذلك، وعندما نأخذ الحكاية كلها بعين الاعتبار، فإن الإنسان كان يعاني في النهاية من أجل الأشياء ذاتها التي حصل عليها الوحش، ودفع ثمنها أقلَّ بما لا يقارن من نفقةِ العذاب والألم.

ولكن هذا كلهُ يشارك في زيادة المعاناة في الحياة البشرية إلى حجم أضخم بكثير مما يتلاءم مع متعها، وإن آلام حياة الإنسان تصبح أسوأ بكثير لأن الموت شيء حقيقي جداً في نظره، فالوحشُ يهربُ من الموت غريزياً من دون أن يفهم فعلاً ماهيته، ولذلك فإنه لا يتأمله أبداً بالطريقة الاعتيادية نفسها التي يتأمله بها الإنسان، الذي تكون إمكانية الموت ماثلة دوماً أمام عينيه بوضوح. وبناء على ذلك: على الرغم من أن عدداً قليلاً من الوحوش يموت ميتة طبيعية، وأكثرها لا يعيش سوى ما يكفيه لنشر ذريته، ومن ثم – إن لم يكن من قبل – يصبح فريسة حيوانٍ آخر، وبينما الإنسان، في الكِفة الأخرى، يستطيع أن يجعل ما يدعوه ميتة طبيعية هو القاعدة – والتي لها على الرغم من ذلك عدد جيد من الاستثناءات – فعلى الرغم من كل ذلك: **تبقى الأفضلية في كِفة الوحش**، وذلك للأسباب المذكورة آنفاً. ولكن الحقيقة أن الإنسان لا يصل إلى العدد الطبيعي من السنوات أكثر من الوحش، لأن الطريقة

غير الطبيعية التي يعيش بها، وضغط العمل والمشاعر، تقودان إلى انحطاط في الفصيلة، ولذلك نادراً ما يحقق هدفه هذا.

الوحش راضٍ بمجرد الوجود أكثرَ بكثير من الإنسان، والنبتة راضية بشكل كامل. ويجد الإنسان الرضا في ذلك بالقدر الذي يكون فيه غبياً وبليداً. وبالتالي فإن حياة الوحش تتضمن معاناة أقل، ولكنها تتضمن لذةً أقل أيضاً إذا ما قورنت بحياة الإنسان. وعلى الرغم من أننا يمكنُ أن نعزو ذلك إلى راحته من عذاب **الاكترات والقلق**، فإن سببه أيضاً هو أن الوحش يجهلُ **الأملَ** في أي من معانيه الحقيقية. وعلى ذلك فهو محروم من أي قدر مما يمنحنا أكبر متعنا ولذاتنا وأفضلها: التوقعُ الفكري للمستقبل السعيد، وحركة الخيال المُشِجعة. إذا كان الوحش حراً من الاكترات، فهو أيضاً، بهذا المعنى، بلا أمل، وذلك لأن وعيه محدود باللحظة الحاضرة، بما يستطيع أن يراه أمامه. إن الوحش تجسيدٌ للبواعث الآنية، ولذا فإن عناصر الخوف والأمل الموجودة في طبيعته – والتي هي قليلة – لا تظهر إلا عندما ترتبطُ بالأشياء المحيطة به والتي يمكن الوصول إليها عبر تلك الغرائز، بينما مجالُ رؤية الإنسان يكتنفُ حياته كلها، ويمتد بعيداً في الماضي والمستقبل.

تبعاً لذلك يكون هنالك مجالٌ واحد تتفوق الوحوش علينا فيه في **الحكمة**، وأقصد استمتاعها الهادئ والمطمئن باللحظة الراهنة. إن صفاء العقل الذي تملكه كثيراً ما يكون مخجلاً لنا إذا قارناه بالمرات الكثيرة التي نسمح فيها لأفكارنا واهتماماتنا أن تجعلنا قلقين وغير راضين. وفي الواقع، نحن لا نحصلُ على لذات الأمل والتوقع التي ذكرتُها بالمجان، فالفرح الذي يجده الإنسان في التطلع قدماً، والأملُ بإشباع رغبة معينة،

إنما هو في الأصلِ جزءٌ من اللذة الحقيقية التي ترتبط بهذا الإشباع، ولكنه يستمتع به مُسبقاً. وهذا يُخصمُ في ما بعد، لأننا كلما تطلعنا قدماً إلى أي شيء ما يَقِلُّ الرضا الذي نجده فيه عندما يحصلُ. ولكن استمتاع الوحش ليس مُتوقعاً، ولذلك لا يُخصمُ منه شيء، بحيث تأتي لذةُ اللحظة كاملة وبلا عوائق. وبالطريقة نفسها أيضاً يؤثر الشرُّ في الوحش بواسطة ثقله الغريزي وحسب، بينما نحن، كثيراً ما يزيدنا خوفُ حصولِ الشرِّ من عبئه عشرة أضعاف.

هذه الطريقة المميزة التي يكرّسُ فيها الوحش نفسَه للحظة الآنية بشكل كامل هي التي تزيد من المتعة التي تقدمها لنا **الحيوانات الأليفة**: إنهم اللحظة الآنية «متجسدةً»، ويشعروننا بقيمة كل ساعة خالية من التعب والإزعاج، التي نتجاهلها نحن في معظم الأوقات بسبب أفكارنا وانشغالاتنا. لكن الإنسان، ذلك الكائن الأناني عديم القلب، يظلمُ صفة الوحش هذه (أي رضاهُ بمجرد الوجود أكثر منا) وكثيراً ما يستغلها الإنسان بحيث لا يسمح للوحش إلا بحياة ضئيلة وحسب. إن الطائر الذي وُجِدَ ليجوب نصف العالم، يحبسه الإنسان في مساحة قدم مربع ليموت هناك موتاً بطيئاً من الشوق والبكاء للحرية، فهو عندما يعيش في القفص لا يغني من أجل متعة الغناء. وعندما أرى كيف يسيء الإنسان إلى الكلب، وهو أفضل أصدقائه، وكيف يربط هذا الكائن الذكي بسلسلة، أشعر بأعمق التعاطف مع الوحش وباحتقارٍ شديدٍ لسيّده.

سوف نرى لاحقاً أنه من الممكن أن نبرر معاناة البشرية عبر اتخاذ موقع استشراف فكري عالٍ جداً، ولكن هذا التبرير لا يمكن أن ينطبق

على الحيوانات، إذ على الرغم من أن قسماً كبيراً من معاناتها هو من فعل البشر، فإنها تُعاني جداً حتى بصرف النظر عن أفعال البشر[4]. ولذا نحنُ مرغمون على السؤال: لماذا ولأي سبب يوجد كل هذا العذاب والشقاء؟ ليس هنالك شيءٌ في حالة الحيوانات يمنحُ الإرادة تمهلاً، فهي ليست حرةً لتُنكرَ نفسها وبذلك تحصل على الخلاص. ليس ثمة سوى اعتبار واحد يمكن أن يفسر معاناة الحيوانات. وهو «أن الإرادة للحياة والتي تشكل ركيزة كل عالم الظواهر يجبُ، في حالة الحيوانات، أن تُشبع رغباتها بالتغذي على نفسها». وهي تفعل ذلك عبر تشكيل تَدرُّجٍ من الظواهر، وكل واحدةٍ منها موجودةٌ على حساب الأخرى. لقد أظهرت، على أي حال، أن إمكانية المعاناة في الحيوانات أقل منها في البشر، وأي تفسيرٍ إضافي نضفيه على مصيرها سيكون على شكل الفرضية، هذا إن لم يكن أسطورياً في طبيعته، وأترك للقارئ أن يتأمل في المسألة بنفسه.

يُقال أن براهما أنتج العالم عبر نوع من السقوط أو الخطأ، ومن أجل التكفير عن خطئه، فهو مُلزمٌ بالبقاء فيه بنفسه حتى ينجز خلاصه، وإذا نظرنا إلى ذلك بصفته سرداً لأصل الأشياء فإنه يستحق الثناء! وحسب عقائد البوذية فقد جاء العالم إلى الوجود نتيجة لاضطراب غير قابل للتفسير في الهدوء السماوي للنيرفانا المباركة، التي استمرت فترة طويلة جداً من الزمن، ويعزى هذا الاضطراب والتغير إلى نوع من القَدَر. ولا بد من فهم هذا التفسير على أنه يحمل في داخله محاميل أخلاقية، على الرغم من أنه يتناسق مع نظرية موازية تماماً في علم الفيزياء، والتي تقول

4. قارن: Welt als Wille und Vorstellung, vol. ii. p. 404.

إن أصل الشمس هو غمامةٌ من الضباب البدائي، الذي تكون من حيث لا يدري أحد. ومن ثمَّ، وعبر سلسلةٍ من الأخطاء الأخلاقية أصبحَ العالم أسوأ فأسوأ بالتدريج – وهذا صحيح في الحالة الفيزيائية أيضاً – حتى وصل إلى الشكل المزري الذي هو عليه اليوم: ممتاز! لقد نظر اليونان إلى العالم والآلهة على أنهم عمل ضرورة مبهمة، وهو تفسير سائغ: يمكن لنا أن نرضى به حتى نحظى بما هو أفضل. مجدداً، **أهورمازد و أهريمان**[5] قوتان متصارعتان في حرب مستمرة، وهذا ليس سيئاً. لكن أن يكون إله مثل يهوه قد خلق هذا العالم من البؤس والويلات، وعن نزوةٍ محضة ولأنه استمتع بفعل ذلك، وأنه بعدها صفق بيديه لنفسه مديحاً على عمله، وأعلن أن كل شيء حسنٌ جداً– هذا لا ينفع إطلاقاً! إن اليهودية، في تفسيرها لأصل العالم، أدنى من أي شكل آخر من أشكال العقيدة الدينية التي تؤمن بها الأمم المتحضرة، وإن هذا يتواءم جداً مع أنها العقيدة الوحيدة التي لا تقدم أي لمحة على الإطلاق من الإيمان بخلود الروح.[6]

حتى لو كان ادعاء ليبنتز بأن هذا أفضل العوالم الممكنة صحيحاً، فإنه لا يبرر خلق الإله له، لأنه ليس خالق العالم وحسب، بل خالق الإمكانية بحد ذاتها، ولذلك فقد كان عليه أن ينظم الإمكانية بحيث تفضي إلى ما هو أفضل.

هنالك شيئان يجعلان من المستحيل التصديق بأن هذا العالم هو العمل الناجح لكائنٍ كامل الحكمة وكُلِّي الخير وفي نفس الوقت كلِّي

---

5. [الروحان النقيضان في الديانة الزرادشتية.]
6. انظر *Parerga*, vol. i. pp. 139 *et seq.*

القوة: أولاً، البؤس الذي يملأ كل مكان فيه، وثانياً، عدم الكمال الواضح في أعلى إنتاجاته، الإنسان، الذي هو مهزلة مقارنة بما يجب أن يكون عليه.

هذه الأشياء لا يمكن مصالحتها مع أي معتقد من هذا النوع، بل على العكس، إنها بالضبط الحقائق التي تدلل على ما كنت أقوله: فهي تعطينا مبرراً لرؤية العالم على أنه نتيجة أفعالنا السيئة الخاصة، وبناء على ذلك، مبرراً لاعتباره شيئاً كان من الأفضل أن لا يكون. بينما، حسب الفرضية الأولى، فإن هذه الحقائق تشكل اتهاماً مريراً ضد الخالق، وتقدم لنا معطيات للتهكم. بينما تشكل حسب الفرضية الثانية إدانة ضد طبيعتنا الخاصة، إرادتنا الخاصة، وتعلمنا درساً في التواضع، فهي تقودنا إلى رؤية أننا، مثل أطفال شخص متعددِ العلاقات، نأتي إلى العالم حاملين عبءَ الخطيئة، وأنه وحده اضطرارنا المستمر للتكفير عن هذه الخطيئة يجعل وجودنا بائساً، وأن نهاية العبء هي الموت.

لا يوجد شيء أكثر يقيناً من الحقيقة الجلية بأن خطيئة العالم الفاجعة هي التي أنتجت معاناة العالم الفاجعة. أنا لا أشير هنا إلى الرابطة الفيزيائية بين هذين الشيئين الواقعين ضمن عالم التجربة، بل إن المعنى الذي أقصده ميتافيزيقي. وبناء على ذلك، فإن الشيء الوحيد الذي يصالحني مع العهد القديم هو قصة السقوط. من وجهة نظري، هي الحقيقة الميتافيزيقية الوحيدة في ذلك الكتاب على الرغم من أنها تأخذ مظهراً رمزياً. ولا يبدو لي أن هنالك تفسيراً أفضل لوجودنا من أنه نتيجة خطوةٍ متعثرةٍ ما، خطيئةٍ ما، ندفعُ ثمنها. لا أستطيع الامتناع عن إيصاء القارئ المفكر برسالة، شائعة، ولكنها في الوقت نفسه عميقة، حول هذا

الموضوع كتبها **كلاوديوس**[7] والتي تظهر الروح المتشائمة جوهرياً في المسيحية. عنوانها «**الأرض ملعونةٌ من أجلك**».

ثمة تباين واضح بين أخلاق اليونان وأخلاق الهندوس، ففي حالة اليونان (باستثناء أفلاطون، كما يجب أن نعترف) يكمن هدف الأخلاق في تمكين الإنسان من عيش حياةٍ سعيدة، ولدى الهندوس «تحريره وتخليصه من الحياة كلها» كما هو مكتوب بوضوح في الكلمات الأولى من **سانكيا كاريكا**.

ويدعم ذلك أيضاً التباينُ بين الفكرتين اليونانية والمسيحية عن الموت. ويظهر ذلك بشكل بصري فاقع على تابوت عتيق منحوت في متحف فلورنسا، إذْ يظهرُ في النحت سلسلة احتفاليات زفاف في الزمن الغابر، بدءاً من الطلب الرسمي وحتى المساء حيث تنير مشاعل «**هايمن**»[8] بيت الزوجين السعيد. قارن ذلك بالتابوت المسيحي، المتشح بسواد الحداد ويعلوه الصليب! كم هو كبير الفارق بين هاتين الطريقتين في إيجاد الراحة في الموت. إنهما متضادتان بإزاء بعضهما بعضاً، ولكن الاثنتين على حق. إحداهما تشير إلى **توكيد** الإرادة للحياة، والتي تبقى ثابتة في الحياة طوال الزمان مهما تغيرت أشكالها. والأخرى تشيرُ إلى رمز المعاناة والموت، تشير إلى **إنكار** الإرادة للحياة، إلى الخلاص من هذا العالم، من مملكة الموت والشيطان. وما بين توكيد إرادة الحياة وإنكارها، فإن المسيحية هي الصحيحة في آخر المطاف.

إن التباينَ الذي يقدمه العهدُ الجديد عند مقارنته مع القديم، حسبَ

---

7. [Maththias Claudius (1740-1815)، شاعر وصحفي ألماني.]

8. [Hymen: إله احتفالات الزواج في الثقافة الهيلنستية]

وجهة النظر الكنسية من الموضوع، هو ذاته الموجود بين نظاميَ الأخلاقي وبين الفلسفة الأخلاقية لأوروبا. يقدمُ العهد القديم الإنسان تحت سلطة الشرع، الذي لا يحتوي، بأي حال، على خلاص. بينما يعلن العهد الجديد أن الشرع قد أخفق، ويحرر الإنسان من سلطته،[9] ويبشّرُ بدلاً عنه بملكوت النعمة، الذي يمكن الفوزُ به عبر الإيمان وحب الجار والتضحية الكاملة بالنفس. هذا طريق الخلاص من الشر في العالم. إن روح العهد الجديد دونما أي شك هي الزُّهد، مهما حاول البروتستانتيون والعقلانيون أن يلووا ذلك ليلائم هدفهم. الزهد هو إنكار الإرادة للحياة، والنقلة من العهد القديم إلى الجديد، من سلطة الشرع إلى سلطة الإيمان، من التبرير عبر الأعمال إلى الخلاص عبر الوسيط، من مملكة الخطيئة والموت إلى الحياة الأبدية في المسيح، تعني، عندما نفهمها بمعناها الحقيقي، النقلة من مجرد الفضائل الأخلاقية إلى إنكار الإرادة للحياة. إن فلسفتي تظهر الأساس الميتافيزيقي للعدالة وحب البشرية، وتشيرُ إلى الهدف الذي تقود إليه هذه الفضائل بالضرورة، إذا ما جرت ممارستها بشكل مثالي. وهي في الوقت نفسه صريحةٌ في أن على الإنسان أن يدير ظهره للعالم، وأن إنكار إرادة الحياة هو الطريق نحو الخلاص. وهي على ذلك متوحدة مع روح العهد الجديد، بينما كل الأنظمة الأخرى متقوقعةٌ في روح العهد القديم. أي بكلمات أخرى، ونظرياً كما عملياً، فإن نتيجتها هي اليهودية «مجرد ألوهية استبدادية». بهذا المعنى إذاً، فإن عقيدتي يمكن اعتبارها الفلسفة المسيحية الوحيدة الحقيقية بحق، مهما بدا ذلك متناقضاً للذين يتخذون وجهات نظر سطحية بدلاً من سبر

9. قارن .Romans vii; Galatians ii, iii

قلب الأمور.

إن أردت بوصلة آمنة ترشدك في الحياة، وتطرد كل الشك الذي يدور حول الطريقة الصحيحة لفهمها، فإنك لن تستطيع أفضل من أن تعوِّد نفسك على أن هذا العالم سجنٌ، نوع من المستعمرة العقابية «Ergastaerion» كما سماها الفيلسوف الأقدم.[10] من بين آباء المسيحية، اتخذ **أوريجانوس** – بشجاعة تستحق الثناء – وجهة النظر هذه،[11] والتي هي مبررة أيضاً في ظل نظريات معينة موضوعية عن الحياة. أنا لا أشير هنا إلى فلسفتي وحسب، بل إلى حكمة العصور كلها، كما يعبر عنها في البراهمانية والبوذية، وفي أقوال الفلاسفة اليونان مثل **إيمبيدوكليس**، **وفيثاغورث**، وأيضاً لدى **سيسيرو** في ملاحظته أن الحكيم القديم كان يعلمنا أننا أتينا إلى هذا العالم لندفع جزاء جريمة ارتُكبت في حالةٍ أخرى من الوجود – وهي عقيدة كانت تشكل جزءاً من تلقين الأسرار[12].

و«**فانيني**»[13] الذي أحرقه معاصروه لأنهم وجدوا ذلك أسهل من تفنيده، يتحدث عن الموضوع نفسه بأسلوب قوي.

**يقول: إن الإنسان ممتلئ جداً بكل أنواع البؤس بحيث – لولا أن ذلك بغيضٌ في الدين المسيحي – لأقدمت على تأكيد أنه لو كانت هنالك أرواح شريرة أصلاً، فإنها قد تمثَّلت شكلاً بشرياً وهي الآن تدفع ثمن**

10. Clem. Alex. Strom. L. iii, c, 3, p. 399
11. Augustine *de civitate Dei.*, L. xi. c. 23.
12. Fragmenta de philosophia.
13. [Lucilio Vanini (1585-1619) مفكر وطبيب إيطالي، من أوائل القائلين بالتطور البيولوجي.]

جرائمها.»[14] والمسيحية الحقيقية – بالمعنى الصحيح للكلمة – تعتبرُ أيضاً أن الوجود نتيجةٌ للخطيئة والخطأ.

إذا عوّدت نفسك على هذه النظرة إلى الحياة فإنك سوف تنظمُ توقعاتك تبعاً لها، وتتوقف عن النظر إلى كل حوادثها البشعة، كبيرة وصغيرة، معاناياتها، قلقها، بؤسها، وكأنه شيء غير عادي أو شاذ، بل إنك ستجد أن كل شيء كما يجب أن يكون، في عالم حيث كل منا يدفع جزاء وجوده بطريقته الخاصة. ومن بين شرور المستعمرة العقابية: مجتمعُ من يعيشون فيها، وإذا كان القارئ جديراً بصحبةٍ أفضل، فإنه لن يحتاج إلى كلماتٍ مني تذكره بما عليه أن يتحمله في الحاضر. إذا كان يملك روحاً فوق الشائع، أو إذا كان شخصاً ذا عبقرية، فسوف يشعر أحياناً أنه يشبه سجيناً نبيلاً حُكِمَ عليه بالعمل في تجذيف السفن مع المجرمين العاديين، وسوف يفعل مثله ويعزل نفسه.

ولكن يجب القول، على نحوٍ عام، أن هذه النظرة إلى الحياة تمكننا من تأمل ما يدعى عيوب الأكثرية الساحقة من الناس، ومواطن ضعفهم الأخلاقية والفكرية، ومسالكهم المنحطة الناتجة عن ذلك، ومن دون أن نشعر بالمفاجأة، ناهيك عن السخط. لأننا لن نتوقف أبداً عن عكس ماهيتنا، والناس حولنا كائناتٌ بُذِرت في الخطيئة وولدت فيها، ويعيشون للتكفير عنها. هذا ما تعنيه المسيحية عند الحديث عن الطبيعة الخطّاءة في البشر.

العفو هي الكلمة للجميع!«[15] مهما كانت الحماقة التي يرتكبها البشر،

14. De admirandis naturae arcanis; dial L. p. 35.
15. "Cymbeline," Act v. Sc. 5.

ومهما كانت نواقصهم وخطاياهم، فلنمارس التسامح، متذكرينَ أنه عندما تظهر لنا هذا الأخطاء في الآخرين، فإننا ننظرُ إلى حماقاتنا وخطايانا. إنها نواقص الإنسانية، التي ننتمي إليها، والتي نتشارك في أخطائها كلها، أجل، حتى تلك الأخطاء التي نشير إليها الآن بكل هذا السخط، لمجرد أنها لم تظهر في أنفسنا حتى الآن. إنها ليست أخطاء على السطح، بل هي موجودة هناك في أعماق طبيعتنا. وإذا جاء ما يستدعيها فسوف تحضر لتظهر نفسها، تماماً كما نراها الآن في الآخرين. ومن الصحيح أنه قد توجد في إنسان أخطاء لا توجد في رفيقه، ولا يمكن إنكار أن المجموع الكلي للصفات السيئة في بعض الحالات يكون ضخماً جداً، لأن الفارق في الفردية بين الإنسان والإنسان يتجاوز كل مقياس.

في الواقع، إن القناعة بأن العالم والإنسان شيءٌ كان يفضلُ ألّا يوجد، لها تأثيرٌ يملؤنا بالتسامح نحو بعضنا بعضاً. بل إنه من وجهة النظر هذه لا ينبغي أن نعتبر صيغة الخطاب المهذبة «سيدي» أو «sir» أو «Monsieur» أو «Mein Herr» بل: رفيقي في المعاناة، « Soci malorum» و«!Compagnon de miseres» يبدو هذا غريباً، ولكنه متوافقٌ مع الحقائق، فهو يرينا الآخرين في المظهر الصحيح، ويذكرنا بذلك الذي هو في آخر المطاف الشيء الأكثر ضرورة في الحياة – التحمل، والصبر، والتأني، وحب الجار، وهي أشياء يحتاجها الجميع، وبالتالي يدين بها كل إنسان لنظيره.

# فراغ الوجود

يجد **الفراغ**[16] تعبيراً له في كامل الشكل الذي يتخذه الوجود، في الطبيعة اللانهائية للزمان والمكان بتضادها مع الطبيعة المحدودة للفرد في الاثنتين، في اللحظة الحاضرة، ولكن العابرة دوماً، التي هي الشكل الحقيقي الوحيد للوجود، في ارتباط الأشياء كلها ببعضها بعضاً وفي نسبيتها، في التكوُّنِ المستمر من دون الكونِ أبداً[17]، في التمني المستمر وعدم الوصول إلى الرضا أبداً، في المعركة الطويلة التي تشكل تاريخ الحياة حيث كل جهد تقيده الصعوبات، وتوقفهُ حتى يستطيع تجاوزها. الزمنُ هو ذلكَ الذي تندثرُ من خلاله كل الأمور، ليس إلا الشكل الذي يتبدى عبرهُ لإرادة الحياة -الشيء في ذاته[18] وبالتالي غير فانية- أن

16. [عنوان المقال في الأصل الألماني Nachträge zur Lehre von der Nichtigkeit des Daseyns (ملاحظات إضافية عن عقيدة فراغ الوجود)، حيث (Nichtigkeit) تعني (سخف، فراغ، بُطلان) ونُقل العنوان إلى الانجليزية أحياناً (the vanity of existence) وأحياناً أخرى (the emptiness of existence). وعلى الرغم من تعذر إيجاد كلمة بمعنى الفراغ والبطلان في آن واحد، فإن شوبنهاور يشرح – في المقال نفسه – بشكلٍ وافٍ ما يقصده من المصطلح.]

17. [في الأصل الألماني: (am steten Werden ohne Seyn)، في الترجمة الانجليزية: (in constantly Becoming without ever Being)]

18. [بالألمانية (Ding an sich)، الانجليزية (thing-in-itself): (الشيء بذاته، أو الشيء في ذاته). مفهومٌ طرحه كانط للتعبير عن الأشياء كما هي موجودة، بمعزلٍ عن إدراكنا لها أو إحساسنا بها، بحيث نحنُ لا نستطيع أن نعرف الأشياء بذاتها ولكن نعرف إدراكنا لها. شوبنهاور هنا يساوي بين إرادة الحياة والشيء في حد ذاته، وأخذ موقفه هذا عدة أشكال على مدى أعماله. وتظهر

جهودها كلها إلى الفراغ؛ إنه ذلك العنصر الذي بفعله، وفي كل لحظة، تصبح الأمور بين أيدينا لا شيئاً، وتخسرُ أي معنىً حقيقيٍ تمتلكه.

إن ذلك الذي كان لم يعد موجوداً، فإنه موجودٌ بقدرِ وجودِ الذي لم يكن أبداً. ولكن لا بد أن تقول عن كل ما يوجد، في اللحظة التالية، أنه قد كان. ولذلك فإن شيئاً عظيم الأهمية قد مضى يصبحُ أدنى من شيءٍ قليل الأهمية حاضرٍ، من حيثُ أن الثاني هو الواقع، وعلاقته مع الأول علاقة شيءٍ مع لا شيء.

في دهشةٍ كبرى يجد الإنسان نفسه موجوداً فجأة، بعد آلاف وآلاف السنين من عدم الوجود "يعيش فترة قصيرة، ومن ثم تأتي، مجدداً، فترةٌ مساويةٌ من عدم الوجود". القلب يثورُ على ذلك، ويشعر بأن هذا لا يمكن أن يكون حقيقياً. إن الفكر الأكثر بدائية لا يستطيع أن يتأمل موضوعاً كهذا من دون أن يصيبه حدسٌ بأن الزمن شيءٌ مثاليٌ في طبيعته. مثالية الزمان والمكان هذه جوهرية في أي نظام حقيقي للميتافيزيقيا، لأنها توِّفرُ صنفاً من الأشياء مختلفاً بحق عما نجده في إطار الطبيعة. ولذلك فإن كانط عظيمٌ جداً.

كل حدثٍ في حياتنا يمكننا القولُ عنه أنه يوجد في لحظة واحدةٍ وحسب، لأنه، بعد ذلك، فقد كان. كل مساءٍ نحن أفقر يوماً. لربما يغضبنا مشاهدة السرعة التي يمضي بها عمرنا القصير من الزمن؛ لولا أننا في أعمق أعماق وجودنا واعون بصمتٍ لحصتنا في نبع الأبد الذي لا

---

الفكرة نفسها في عدة فصول من هذا الكتاب، ولربما يكون أوضح تجسيد لها في الفصل المعنون (عن الخلود). ]

ينفد، بحيث نستطيع دوماً أن نأمل في إيجاد الحياة فيه مجدداً.

إن الاعتبارات من هذا النوع المذكور آنفاً قد تقودنا فعلاً إلى اعتناق الاعتقاد بأن **الحكمة** الكبرى هي في جعل الاستمتاع بالحاضر غرضَ الحياة الأعلى. لأن ذلك هو الواقع الوحيد، وكل ما هو غيره مجردُ ألعابٍ للفكر. من جهةٍ أخرى، فإن مثل هذا المسار يمكن وصفه على نحو مساوٍ بأنه **الحماقة** الكبرى: لأن ذلك الذي يختفي في اللحظة التالية لا يعود موجوداً، ويختفي تماماً، مثل الحلم، فلا يمكن له أبداً أن يكون جديراً بجهدٍ حقيقي.

إن كامل الأساس الذي يقوم عليه وجودنا موجودٌ في الحاضر، ذلك الحاضر الذي ما ينفكُّ يهرب. ولذلك، فمن صلبِ طبيعة وجودنا أنها تأخذ شكل الحركة المستمرة، ولا تسمح باي إمكانية للحصول على الاستراحة التي نسعى دوماً من أجلها. نحن مثل رجلٍ يركض نزولاً، لا يستطيع أن يبقى على رجليه إلا إذا تابع الركض، وسوف يقع بلا شك إذا توقف. أو أيضاً مثل عمود يوازنه المرء على طرف إصبعه، أو مثل كوكبٍ سيصطدم بشمسه في اللحظة التي يتوقف فيها عن متابعة طريقه. إن اللااستقرار صفةُ الوجود.

في عالمٍ كل ما فيه غير مستقر، ولا شيء يمكن أن يبقى بل يُدفع نحو الأمام فوراً في زوبعة متسارعة من التغيير. حيث الإنسان، إذا أراد البقاء واقفاً، عليه دوماً أن يتقدم ويتحرك، مثل بهلوان على الحبل، ولا يمكن تصور السعادةُ في مثل هذا العالم.

كيف يمكن لها أن تقطن – كما يقول أفلاطون – **حيث التكوُّنُ باستمرار وعدمُ الكونِ أبداً** هو الشكل الوحيد من الوجود؟ في المقام

الأول، لا يكونُ الإنسانُ سعيداً أبداً، بل يقضي حياته كلها يصارعُ بحثاً عن شيء يحسبُ أنه سيجعله سعيداً، ونادراً ما يصلُ إلى هدفه، وحين يصل، يصلُ ليصاب بخيبة الأمل، وفي أغلب الأحيان تتحطم سفينته في النهاية، ويصل إلى المرفأ بلا صوارٍ أو أشرعة. وبعد أن يمضي كلُّ ذلك فسيّان إذا ما كان سعيداً أو تعساً، لأن حياته ما كانت أكثر من لحظة حاضرة تتلاشى باستمرار، والآن انتهت.

وفي الوقت نفسه فهو شيءٌ رائع – في عالم الإنسان كما في عالم الحيوان بشكل عام – أن هذه الحركة الدائمة متعددة الأطوار ينتجها، ويحافظُ عليها، تأثيرُ غريزتين بسيطتين هما الجوع والغريزة الجنسية. ويساعدهما قليلاً، لربما، تأثير الملل، ولكن لا شيء آخر. وأيضاً أنه، في مسرح الحياة، هذه الثلاثة تكفي لإنتاج المتحرك الأول[19] لآلة بالغة التعقيد، ويبث في الوجود مشهداً شديد الغرابة والتنوع!

عند إمعان النظر أكثر قليلاً، نجد أن المادة غير العضوية تشكل صراعاً مستمراً بين القوى الكيميائية، والتي تنتهي في آخر المطاف إلى التفكك، ومن الجانب الآخر، فإن الحياة العضوية مستحيلةٌ من دون التغير المستمر للمادة، ولا يمكن لها أن توجَدَ إنْ لم تتلق مساعدةً دائمة من الخارج. هذه مملكةُ الانتهاء، وبعكسها يكون وجود غير منته، غير عرضة للهجوم من الخارج، ولا يحتاج شيئاً يدعمه، [باليوناني: haei hosautos dn][20]، ومملكة السلام الأبدي [باليوناني: oute

19. [Primum mobile المتحرك الأول، في علم الفلك في العصور الوسطى: فلكٌ يحتوي كل نظام الكواكب الذي مركزه – حسب الاعتقاد وقتها – الأرضُ. وينتج عن حركته تبدل الليل والنهار وسريان النجوم.]

20. [باقية لا تتغير للأبد.]

giguomenon oute apollumenon][21]، أي: حالةٌ ما بلا زمن، بلا تغيُّر، واحدةٌ وغير متعددة، والتي تشكل المعرفة السلبية عنها النقطة الرئيسية في الفلسفة الأفلاطونية. وحالةُ من الوجود كهذه هي التي يفتحُ إنكارُ إرادة الحياة الطريق إليها.

إن مشاهدَ حياتنا مثل صورٍ مصنوعة من فسيفساء خشنة، فإذا ما نظرنا إليها عن قرب لا يكون لها تأثير، ولا شيء جميل يوجد فيها، إلا إذا وقفت على بعد مسافة ما. ولذلك، فإن حصولنا على أي شيء نتوق إليه ينتهي باكتشافنا كم هو فارغ وبلا فائدة. وعلى الرغم من أننا نعيش دوماً متوقعين أشياء أفضل، فإننا كثيراً ما نندم ونتوقُ إلى استعادة الماضي مجدداً. إننا ننظرُ إلى الحاضر بصفته شيئاً يجب تحمله في أثناء استمراره، وعلى أنه ليسَ إلا طريقاً نحو هدف. ولذلك فإن معظم الناس، إذا نظروا إلى الوراء بعد وصولهم إلى نهاية الحياة، يكتشفون أنهم كانوا دوماً يعيشون مؤقتاً، وسيتفاجؤون إذْ يكتشفون أن الشيء ذاته الذي تجاهلوه، وتركوه يمرُّ من دون أن يستمتعوا به، كان هو الحياة التي قضوا كل وقتهم يتوقعونها. كم إنسانٍ لا نستطيع القول عنه أن الأمل جعله أحمقَ حتى وصل راقصاً إلى يدي الموت!

ولكن أيضاً، كم إن الإنسان مخلوق غير قابل للإشباع! كل إشباع يحصلُ عليه ينثرُ بدوره بذورَ رغباتٍ جديدة، بحيثُ لا نهاية لتمنيات كل إرادة فردية. ولماذا يكون ذلك؟ السبب الحقيقي ببساطة هو أن الإرادة، إذا نظرنا إليها بحد ذاتها، هي سيدةُ كل العوالم «كل شيءٍ ينتمي

21 [لا ندخل الوجود ولا نرحل عنه.]

إليها»، ولذلك لا يمكن أبداً لشيء واحد فردي أن يمنحها الإشباع، بل الكلُّ وحده الذي يقدر على ذلك، والذي هو لا ينتهي. بسبب كل ذلك، يجب أن يثيرَ تعاطفنا التفكيرُ في كم هو قليلٌ الذي تحصلُ عليه الإرادة – سيدة العالم – فعلاً عندما تتخذُ شكل فرد، ولا تأخذُ في العادة سوى ما يحافظ على تماسك الجسد. وهذا هو سببُ تعاسةِ الإنسان إلى هذه الدرجة.

إن الحياةَ تقدِّمُ نفسها بشكل جوهري بصفتها مهمة، أعني مهمة البقاء على قيد الحياة أصلاً، gagnar sa vie[22]. وإذا تحقق ذلك فالحياة عبء، وتأتي المهمة الثانية في إيجاد شيء لفعله باستخدام ما تم تحقيقه – دفعاً للملل الذي يحوم حولنا كطائرٍ جارح، مستعداً للهجوم حيثُ يرى حياةً متحررة من الاحتياج. المهمة الأولى هي كسبُ شيء، والثانية، طَرْدُ شعورنا بأنه قد كُسب، وإلا يصبح عبئاً.

إن الحياة الإنسانية لا بد أن تكون نوعاً ما من الخطأ. تبدو حقيقة ذلك واضحةً بما يكفي إذا ما تذكرنا ببساطة أن الإنسان مركبٌ من حاجات وضرورات صعبة الإشباع، وأنها حتى عندما تُشبع، فكل ما يحصل عليه هو حالة من اللا ألم، حيث لا يتبقى أمامهُ شيءٌ سوى الوقوع في الضجر. هذا دليلٌ مباشر على أن الوجود لا قيمة له بحد ذاته، إذْ ما هو الضجرُ إن لم يكن شعوراً بفراغ الحياة؟ لو أن الحياة – التي يشكل تَوْقُنا إليها جوهرَ وجودنا – تمتلكُ أي قيمة إيجابية بحد ذاتها، لما وُجِدَ شيءٌ كالضجر أصلاً: لكان مجرد الوجود يرضينا بحد ذاته، فلا

22. [بالفرنسية: كسبُ القوت.]

نحتاج شيئاً. ولكن والحال كما هي، فإننا لا نجد متعة في الوجود إلا عندما نصارع من أجل شي، ومن ثم تجعلنا المسافات والصعوبات التي ينبغي تجاوزها نظنُّ أن هدفنا سيُشبعنا، وهو وهمٌ يتبخرُ عندما نصل إلى الهدف، أو عندما نكون مشغولين بقضية فكرية بحتة، وفي الواقع نكون قد خرجنا من الحياة لنراقبها من الخارج، كما يفعل المشاهدون في مسرحية. وحتى المتعة الحسية لا تعني شيئاً سوى صراعٍ وطموح، وتتوقف في اللحظة التي يتحقق فيها هَدفُهُما. وفي أي وقتٍ لا نكون فيه مشغولين بواحدة من هذه المسائل، بل نُعمل تفكيرنا في الوجود بحد ذاته، فإن طبيعته الفارغة التي لا تساوي شيئاً تظهرُ لنا، وهذا ما نعنيه بالضجر. التشوُّقُ وراء ما هو غريبٌ وغير معتاد – وهي نزعة فطرية لا يمكن التخلص منها في الطبيعة البشرية – تُظهر كم أننا سعيدون بأي تغييرٍ للمسار الطبيعي للأمور، الذي هو ممل جداً.

هذا هو التجسُّد الأكثر مثالية للإرادة للحياة «الكائنُ العضوي البشري»، بحذق آلياته وتعقيد عملها، لا بد أن يتحول إلى تراب ويُسلِّمَ نفسه وكلَّ سعيه إلى الفناء. هذه هي الطريقة الساذجة التي تعلن بها الطبيعة – التي هي دوماً حقيقية وصادقة فيما تقول – أن صراع هذه الإرادة برمته هو، كما في جوهره، فارغٌ ولا ربح فيه. لو أن فيه أيَّ قيمةٍ بحد ذاته، أيَّ شيءٍ غير مشروط أو مطلق، لما كان من الممكن أن ينتهي إلى مجرد اللا شيء.

لو انتقلنا من تأمل العالم ككل، وعلى وجه الخصوص، أجيالِ الناس كما يعيشون ساعتهم الصغيرة من الوجود المزيف الذي يندثر في تتابعٍ سريع، لو وضعنا هذا جانباً ونظرنا إلى الحياة بتفاصيلها الصغيرة، كما

تُقدَّمُ على سبيل المثال في الكوميديا، فكم تبدو سخيفة! كأنها نقطة ماء تحت مجهر، قطرةٌ صغيرة تعج بالأحياء الدقيقة، أو فُتاتة من الجبنة الممتلئة بالعث غير المرئي للعين المجردة. كيف نضحك من حركتهم الحيوية! وصراعهم مع بعضهم بعضاً في مثل هذه المساحة الضيقة! وسواءً هنا، أم في الإطار الصغير للحياة الإنسانية، فإن لهذا النشاط الحيوي والمنفعل تأثيراً مضحكاً.

في المجهر وحده تبدو حياتُنا كبيرةً. إنها نقطةٌ لا تنقسم، تجتذبُها وتكبرها عدسات الزمان والمكان القوية.

# عن الانتحار

حسب معرفتي، فإن معتنقي الأديان التوحيدية، أي الأديان اليهودية، هم الوحيدون الذين يرونَ في الانتحار جريمة. ويزيد ذلك غرابةً أن العهد القديم والجديد خاليان من أي تحريم أو عدم قبول له، ولذلك فإن المعلمين الدينيين مرغمون أخيراً على تأسيس إدانتهم للانتحار على منطلقات فلسفية من اختراعهم الخاص. وهذه الأخيرة ضَعيفةٌ جداً، إلى حد أن الكُتَّابَ من هذا النوع يحاولون تعويض ضعف حجتهم بالمصطلحات الطنانة القوية التي يعبرون بها عن مقتهم للانتحار، بكلماتٍ أخرى، يستخدمون الخطابة ضدها. يقولون لنا أن الانتحار هو القدر الأكبر من الجبن، ووحده المجنون قابلٌ لأن يُقدم عليه، وتفاهات أخرى من هذا القبيل. أو يحاولون الترويج للقول غير العقلاني بأن الانتحار خطأ، بينما من الجلي تماماً أن الإنسان لا يملك حقاً أكثر حصانة من حقه في حياته وشخصه.

يعتبر الانتحارُ كما قلت جريمة بالفعل، وهي جريمة يُعاقبُها القانون – وخصوصاً في ظل التعصب الغوغائي المهيمن في بريطانيا – ويتلوها دفنٌ غير مشرف، ومصادرةٌ لأملاكِ المنتحر، والسببُ في ذلك هو أن هيئة المحلفين – في قضايا الانتحار – تحكم بجنونُ المنتحر دوماً تقريباً. فلندع الآن مشاعرَ القارئ الأخلاقية الخاصة به تقرِّرُ ما إذا كان الانتحارُ

سلوكاً إجرامياً أم لا. فكِّرْ بالمشاعر التي تنتابك لو وصلتكَ أخبارٌ تقول إن أحداً تعرفه ارتكبَ جريمة، فلنقل قتلاً أو سرقة، أو إنه مذنب في فعلٍ متوحشٍ ما أو خديعة، وقارنْ ذلك مع مشاعرك عندما تسمع أنه لاقى موتاً طوعياً. في الحالة الأولى سوف تنفعل وستطالبُ بصوت عالٍ بالعقاب أو الانتقام، وفي الأخرى يحركك الأسى والتعاطف، ويختلطُ بأفكارك إعجابٌ بشجاعته، عوضاً عن الاستنكار الأخلاقي الذي يتداعى إثرَ فعلٍ شرير. من هو الذي ليس عنده معارفُ أو أصدقاء أو أقرباء غادروا هذا العالم بمحض إرادتهم الحرة؟ وهل ينبغي أن نستقبحهم كالمجرمين؟ بكل تأكيد لا! بل إنني أرى وجوبَ تحدي رجالِ الدين ليفسروا أي حقٍ يملكونه ليجلسوا لمحاكمة أفعال هؤلاء؟ أو ليكتبوا عنه واصمين إياه بالجريمة؟ وهو فعلٌ ارتكبه كثيرٌ ممن ننظر إليهم بالمحبة والشرف، وأي حق يملكون في رفض الدفن اللائق للذين يغادرون العالم بإرادتهم؟ ليس عندهم سلطة من الكتاب المقدس يتبجحون بها لتبرير تجريمهم الانتحار، بل أكثر من ذلك، ليس ثمة حتى نقاشٌ فلسفيٌ رصين، ولا بد من فهم أننا نريد نقاشات، وأننا لن نقبل بمجرد عبارات الإهانة. فإذا كان القانون الجنائي يجرِّمُ الانتحار، فهذا ليس مسوغاً لاهوتياً سليماً للكنيسة. وعلاوة على ذلك، فإن التحريم سخيفٌ في طبعه، فأي عقوبةٍ هي تلك القادرة أن ترعب شخصاً لا يخاف الموت نفسه؟ إذا كان القانون يعاقب الناس لمحاولتهم الانتحار، فإنما هو يعاقبهم على نقص المهارة الذي يجعلهم يخفقونَ في المحاولة.

والقدماءُ، علاوة على ذلك كله، كانوا بعيدين أشدَّ البعد عن النظر

إلى المسألة بهذه الطريقة. يقول بيلينيوس[23]: «ليست الحياة شيئاً مرغوباً إلى الحد الذي ينبغي فيه حمايتها بأي ثمن. أياً من الناس كنت، فإنك ستموت بالتأكيد، حتى لو أن حياتك كان ممتلئة بالفظاعة والجريمة. إن أعظم العلاجات للعقل المتعب هو ذلك الشعور بأنه، من بين النعم التي تمنحها الطبيعة للإنسان، ليس هنالك ما يتفوق على ميتةٍ تأتي في أوانها، وأفضل ما في الموضوع أن الجميع قادرٌ على تحصيل ذلك».[24] وفي مكان آخر يقول هو نفسه: «حتى عند الإله ليست كل الأمور ممكنة، فهو لا يستطيع أن يصنع موته إذا شاء أن يموت، وعلى الرغم من ذلك، ومن بين كل تعاسات الحياة الأرضية، فإن هذه هي هديته الأفضل للإنسان».[25] بل في ماسيليا[26] وفي جزيرة «كيوس»[27]، كان الرجل الذي يقدم أسباباً سليمة لإنهاء حياته يحصل على كوب السم من يد القاضي بنفسه وعلى العلن أيضاً.[28] وفي الزمان القديم، كم من بطل وكم من حكيمٍ مات طوعاً. صحيحٌ أن أرسطو[29] اعتبر الانتحار جريمة ضد الدولة، ولكن ليس ضد الشخص، ولكننا في عرضٍ ستوبيوس[30] للفلسفة المشّائيّة نجد الملاحظة التالية: «يجب على الرجل

23. [جايوس بيلينيوس سيكوندوس (23/79 ميلادي)، فيلسوف روماني، أشهر أعماله (naturalis historia) 'التاريخ الطبيعي' وهي أضخم موسوعة باقية من عصر روما الإمبراطورية.]

24. Hist. Nat. Lib. xxviii., 1.

25. Loc. cit. Lib. ii. c. 7.

26. [الاسم اللاتيني لمارسيليا الفرنسية حالياً]

27. [كيوس أو كيا Ceos/Kea جزيرة يونانية في بحر إيجة]

28. 3 Valerius Maximus; hist. Lib. ii., c. 6, sec. 7 et 8. Heraclides Ponticus; fragmenta de rebus publicis, ix. Aeliani variae historiae, iii., 37. Strabo; Lib. x., c. 5, 6.

29. *Eth. Nichom.*, v. 15.

30. [Stobaeus يونانيٌ عاش في القرن الخامس، لا يُعرف الكثير عن حياته، جمع أعمال وكتابات الكثير من المفكرين اليونان.]

الجيد أن يهرب من الحياة عندما تصبح تعاساته أكبر مما يمكن احتماله، والرجل السيء أيضاً، عندما يصبح عيشه أرغد من اللازم». وعلى نحوٍ مشابه: «**فهو** يتزوج وينجب ويشارك في شؤون الدولة، وبشكل عام، يمارس الفضيلة ويستمر بالحياة، ومن ثم، مجدداً، إذا لزم الأمر، وفي أي لحظة تدفعه الضرورة، يغادر نحو ملاذه في القبر».[31] ونجد أن **الرواقيين** يمدحون الانتحار بصفته فعلاً بطولياً، كما يظهر ذلك في مئات المقاطع، وتجد ذلك في أبهى صوره في أعمال **سينيكا**، الذي يعبر عن موافقة قوية جداً على الفعل. وكما هو معروف جيداً، ينظر الهندوس إلى الانتحار على أنه فعلٌ ديني، خصوصاً عندما يكون على شكل تقديم الأرملة نفسها قرباناً، ولكن أيضاً عندما يرمي الإنسان نفسه تحت عربة **الإله جوغرنوت**[32]، أو عندما يقدم نفسه لتماسيح نهر الغانج، أو عندما يرمي نفسه للغرق في الخزانات المقدسة في المعابد، وهلم جراً. الأمر نفسه يحصل على المسرح، على مرآة الحياة تلك. على سبيل المثال في L'Orpelin de la Chine[33] وهي مسرحية صينية عريقة، ينتهي فيها الأمر بالشخصيات النبيلة كلها تقريباً بالانتحار، دون أدنى إشارة في أي مكان، أو أي تلميح يوحي إلى المشاهد بأن ما يفعلونه جريمة. وفي مسرحنا نحن أيضاً الأمر متشابه: شخصية بالميرا مثلاً في مسرحية رسول[34]، و«**مورتيمر**» في مسرحية ماريا ستوارت، وأوثيلو (**عطيل**)، والكونتيسة «**تيرزكي**». هل إن مونولوج هاملت تأملاتُ مجرم؟ هو

31. Stobaeus. *Ecl. Eth.*. ii., c. 7, pp. 286, 312.
32. [يقصد شوبنهاور احتفال 'راثا ياترا' في الهند حيث تُدفع الآلهة في عربات عملاقة من معبد إلى آخر.]
33. Traduit par St. Julien, 1834.
34. [مسرحية عن حياة رسول كتبها فولتير، يصف فيها قتله لمعارضيه، ومن ثم استعباده واغواءه لبناتهن]

ببساطة يعلن أننا لو كنا واثقين من أن الموت ينهينا، فهو يفضِّلُ بما لا يقاسُ على العالم كما هو. ولكن هنا بالضبط يكمن لب الموضوع!

إن الحجج التي يقدمها رجال الدين في الأديان التوحيدية، أي اليهودية، وأولئك الفلاسفة الذين يلائمون أنفسهم معها، سفسطات ضعيفة يمكن نقضها بسهولة.[35] أفضل تفنيد لذلك يقدمه هيوم في مقاله **Essay on Suicide**. لم يظهر هذا المقال إلا بعد موته، وجرى قمعه فوراً بسبب التعصب المشين والطاغوت الكنسي المعيب المستشري في انكلترا. ولذلك لم تُبع منه سوى نسخ قليلة تحت غطاء السرية وبسعر عال. هذا المقال وأطروحة أخرى لهذا الرجل العظيم وصلتنا من مدينة **«بازل»**[36]، وينبغي أن نكون شاكرين لإعادة الطبع.[37] من العار على الأمة البريطانية أن مقالا فلسفياً بحتاً كهذا – وصاحبه أحد أوائل المفكرين والكتاب في انكلترا – يهدف إلى تفنيد الجدالات ضد الانتحار في ضوء العقل السليم، قد صار مجبراً على التسلل خلسة في أنحاء البلاد، وكأنه عملٌ مشين، حتى وجد أخيراً ملجأً له في أوروبا. ويظهرُ ذلك على أي حال أيَّ نوعٍ من الضمير تملكه الكنيسة في هذا الموضوع.

في عملي الرئيس شرحت السبب الوحيد السليم ضد الانتحار، وهو التالي: أن الانتحار يعرقل الوصول إلى الهدف الأخلاقي الأسمى لأنه في الواقع يكون بديلاً ظاهرياً عن الخلاص الحقيقي من معاناة العالم. لكن الانتقال من اعتباره **خطأً** إلى اعتباره **جريمة** قفزة بعيدة جداً. ورجال

---

35. انظر أطروحتي (عن أساسات الأخلاق) المقطع 5.
36. [basel : مدينة في شمال-غرب سويسرا]
37. Essays on Suicide and the Immortality of the Soul, by the late David Hume, Basle, 1799, sold by James Decker.

الدين المسيحيون يريدوننا أن نعتبر الانتحار جريمة فعلاً.

إن الجوهر الأعمق للمسيحية هو أن المعاناة – الصليب – هي الغاية الحقيقية للحياة. ولذلك فالمسيحية تدين الانتحار لانه يعرقل هذه الغاية، بينما العالم القديم، الذي ينظر من نقطة أدنى، كان يعتبره مقبولاً، بل ومشرفاً.[38] ولكننا إن اعتبرنا هذا حجة سليمة ضد الانتحار، فإنها تتطلب الاعتراف بالزهد، أي: لا تكون حجةً سليمةً إلا من منطلقٍ أخلاقي أعلى بكثير من أي شيء تبنّاه فلاسفة الأخلاق في أوروبا. إذا تخلينا عن ذلك المنطلق الأعلى، لا يبقى هنالك سبب ملموس، من الناحية الأخلاقية، لإدانة الانتحار. إن الحدة والتعصب الظاهرين في هجوم كهنوت الأديان التوحيدية على الانتحار لا يدعمهما أي مقطع من الكتاب المقدس أو أي اعتبارات ذات وزن، فيبدو الأمر وكأنهم يملكون سبباً سرياً لإدانته. ألا يمكن أن يكون هذا السبب هو التالي: أن تسليم الحياة طوعياً يسيء إلى الذي يقول بأن « كل شيء حسن جداً »؟ إذا كان هذا هو السبب فعلاً فإن هذا يكشف عن حالة أخرى من التفاؤل الفج في هذه الأديان – فهي تدينُ الانتحارَ كي لا يدينها الانتحار.

سوف نجد بشكل عام أنه ما إن تصل مخاوف الحياة إلى النقطة التي

38. يشير شوبنهاور إلى .Die Welt als Wille und Vorstellung, vol. i, sec. 69 حيث يجد القارئ النقاش نفسه في صيغة أطول. حيث يدعي أن الحرية الأخلاقية – الهدف الأخلاقي الأعلى – لا يمكن الحصول عليها إلا عن طريق إنكار إرادة الحياة. والانتحار بعيدٌ عن أن يكون إنكاراً، بل هو تأكيد شديد على هذه الإرادة. لأن هذا الإنكار يكون في الإفلات من لذات الحياة، وليس من عذاباتها. عندما يدمر الإنسان وجوده كفرد، فهو لا يدمر إرادته للحياة بأي طريقة، بل على العكس، كان يود أن يعيش لو استطاع أن يفعل ذلك بما يشبع نفسه، لو استطاع أن يمارس إرادته ضد الظروف، ولكن الظروف أقوى منه.

تصبح فيها أكبر من مخاوف الموت، فإن الإنسان ينهي حياته. ولكن مخاوف الموت بدورها تقاوم بشراسة، فهي تقف كالحارس على البوابة المفضية إلى خارج هذا العالم. لربما أقدم كل رجلٍ حي على إنهاء حياته لو أن هذه النهاية كانت ذات طبيعة سلبية صرفة: توقفٌ مفاجئ عن الوجود. ولكن ثمةَ شيءٌ إيجابي فيها، فهي تدمير الجسد، والإنسان يرتعد من ذلك، لأن جسده تجسيد لإرادته للحياة.

ولكن الصراع مع هذا الحارس، كقاعدة، ليس صعباً كما يبدو لنا من بعيد، وذلك بسبب التنازع بين أمراض الجسد وأمراض العقل. إذا كنا نعاني من آلام جسدية مبرحة، أو ألمٍ دامَ وقتاً طويلاً، لا نعودُ نكترثُ بالمشكلات الأخرى، بل يغدو جلُّ تفكيرنا في التعافي. وبالطريقة ذاتها، تجعلنا المعاناة العقلية الكبيرة لا نحسُّ بالألم الجسدي، فنكرهُه، بل إذا تجاوزَ الأولى فهو يُلهي أفكارنا عنها، ونُرحبُ به على شكل استراحةٍ من معاناتنا العقلية. هذا الشعور هو الذي يجعل الانتحارَ سهلاً: لأن الألم الجسدي الذي يرافقه يخسرُ كل قيمته في عين الذي يتعذب بالمعاناة العقلية المفرطة. هذا واضحٌ على نحو خاص في حالة الذين يقدمون على الانتحار بفعل مزاج مرضيٍّ شديد الحزن. هؤلاءُ لا يلزمهم جهدٌ خاص للتغلب على مشاعرهم، ولا يتطلبهم الأمرُ أن يدفعهم أحد إلى الإقدام على الموضوع، بل ما إن يغادر المسؤول عن العناية بهم لمجرد دقيقتين تجدهم يُنهونَ حياتهم بشكل سريع.

عندما نصل في حلم مرعب ومريع إلى لحظة الرعب الأكبر، يوقظنا، وبذلك يطرد كل الأشكال المشوهة التي تولد في الليل. والحياة حلم: عندما تدفعنا لحظة الرعب الأكبر لإنهائها، يحصل الشيء نفسه.

من الممكن أيضاً اعتبار الانتحار تجربة – سؤالاً يقدمه الإنسان للطبيعة، محاولاً إرغامها على إدراكه لطبيعة الأشياء؟ إنها تجربة خرقاء، لأنها تتضمن تدمير الوعي الذي يطرح السؤال وينتظر الإجابة.

# عن الخلود: حوار

## ثراسياكوس – فيلاليثيس [39]

**ثراس:** قل لي، وبإيجاز، ماذا سأصبح بعد موتي؟ وكن واضحاً ودقيقاً.

**فيل:** الكل ولا شيء.

**ثراس:** كنت أعلم! أقدم لك مشكلةً فتقدم لي تناقضاً. هذه خدعةٌ عفا عليها الزمن.

**فيل:** أجل ولكنك تقدم أسئلة متعالية «Transcendental»، وتتوقع مني أن أجيبك بلغة لا تنفع إلى للمعرفة المحايثة «immanent»، فلا غرابة في أن يفضي ذلك إلى تناقض.

**ثراس:** ما الذي تعنيه بالأسئلة المتعالية والمعرفة المحايثة؟ لقد سمعت هذين التعبيرين من قبل، طبعاً، ولا جديد فيهما علي. البروفسور كان مولعاً بهما، ولكن فقط بصفتهما إخبارين «predicates» عن الإله، ولم

39. [Thrasymachos ثراثيماكوس (459–400) ق.م فيلسوف يوناني من السفسطائيين، ويظهرُ الاسم نفسه في عدد من الكتابات، من ضمنها كتاب أرسطو (عن السياسة). ويظهر أيضاً في (جمهورية) أفلاطون (الكتاب الأول)، حيث يأخذ وجهة النظر القائلة: "إن العدلَ ليس إلا مصلحةَ الأقوى". *Philalethes* فيلاليثيس: حرفياً 'مُحبُّ الحقيقة'، وهو اسمٌ استخدمه كثيرٌ من الكتاب كاسم مستعار.]

يتحدث عن أي شيءٍ آخر، وكل ذلك صحيح وسليم. كان يجادل كالتالي: لو أن الإله كان في العالم نفسه، لكان محايثاً، ولو كان في مكان خارجه، فهو متعالٍ، ولا شيء أكثر وضوحاً وبديهيةً من ذلك! هذا شيء يمكن لك أن تفهمه، ولكن هذه الهراء الكانطي ما عاد ينفع، فهو قديم وما عاد ينطبق على الأفكار الحديثة. بل أصبح عندنا فيلقٌ كاملٌ من الرجال البارزين في مدينة العلم الألمانية-

**فيل:** (جانباً) الهراء الألماني، بالأحرى.

**ثراس:** **«فريدريش شليرماخر»** العظيم مثلاً، والعقل العملاق **«هيجل»**. ولقد تخلينا في وقتنا الحديث عن مثل هذا الهراء الفارغ. بل أقول إننا تجاوزناه إلى الحد الذي ما عُدنا نستطيع أن نقبل التعامل معه بعد اليوم. ما فائدته إذاً؟ ماذا يعني كل ذلك؟

**فيل:** المعرفة المتعالية معرفة تمضي إلى ما وراء حدود التجربة الممكنة، وتسعى لأن تحدد طبيعة الأشياء كما هي في ذاتها. أما المعرفية المحايثة فهي معرفة تقصرُ نفسها بشكل كامل ضمن تلك الحدود، بحيث لا تنطبق على شيء إلا على الظاهرة. بصفتك فرداً، فإن الموت سيكون نهايتك. ولكن فرديتك ليست كيانك الحقيقي والأعمق: هي ليست إلا التجسد الخارجي له. إنها ليست الشيء في حد ذاته، بل ليست إلا ظاهرة تظهرُ ضمن إطار الزمن، ولذلك لها بداية ونهاية. ولكن وجودك الحقيقي لا يعرف زمناً ولا بداية ولا نهاية، ولا حدودَ أي فردٍ معين، ولا فردَ قادرٌ على أن يوجد من دونه. فعندما يأتي الموت تنتهي أنت، من جهة، بصفتك فرداً، ومن جهة أخرى، فأنتَ الآن، وستبقى، كلّ شيء. هذا ما عنيته حين قلت أنك بعد الموت تصبح الكل ولا شيء. ومن

الصعب بمكان إيجاد إجابة أكثر دقة لسؤالك، وأن تكون في الوقت نفسه موجزة. إن الإجابة متناقضة، أنا أعترف بذلك، ولكنها كذلك لأن حياتك، ببساطة، هي في الزمن، والجزءُ الخالد منك في الأزل. يمكنُ لك أن تعبر عن الموضوع كالتالي: إن جزءك الخالد شيءٌ لا يبقى على الزمان، ولكنه في الوقت نفسه غير قابلٍ للتدمير، ولكن هنا عندك تناقضٌ آخر! أنت ترى ما يحدث عندما تحاول استقدامَ المتعالي إلى داخل حدود المعرفة المحايثة. هذا بشكل ما نوع من العنف تجاه الأخيرة عبر إساءة استخدامها في أغراض لم تكن أصلاً معنية بخدمتها.

**ثراس:** انظر هنا، ما كنت لأدفع فلساً مقابل خلودك إلا لو كنت سأبقى فرداً.

**فيل:** حسنٌ، ربما أستطيع أن أرضيك في هذه النقطة. افترض أنني ضمنت لك أنك ستبقى فرداً بعد موتك، ولكن بشرط أن تقضي أولاً ثلاثة شهور في حالة من اللاوعي الكامل.

**ثراس:** لن يكون عندي اعتراض على ذلك.

**فيل:** ولكن تذكر، إذا كان الناس غير واعين بشكل كامل، لا يكون عندهم شعور بالزمن. ولذلك حين تكون ميتاً، فلن يختلف الأمر بالنسبة إليك لو مرت ثلاثة شهور في عالم الوعي، أو عشرة آلاف سنة. ففي الحالة الأولى كما في الثانية يتعلق الموضوع بتصديقك ما سيقال لك حين تستيقظ. حتى الآن، إذاً، تستطيع أن تكون غير مكترثٍ إذا مرت ثلاثة أشهر أو عشرة آلاف سنة قبل أن تستعيد فرديتك.

**ثراس:** أجل إذا تطلب الأمر ذلك، أظنك محقاً.

**فيل**: ولو حصل بالصدفة – بعد أن مرت تلك العشرة آلاف سنة – أنْ أحداً لم يفكر في إيقاظك، أظنك لن تجد ذلك مصاباً كبيراً. فقد أصبحت معتاداً على عدم الوجود فترة طويلة، وذلك، أصلاً، جاء بعد أن عشتَ سنين قليلة من الحياة. وفي أي حال فمن المؤكد أنك ستكون غافلاً تماماً عن الموضوع كله. وعلاوة على ذلك، فإنك كنت تعلم أن القوة الغامضة التي تبقيك في حالتك الحالية من الحياة لم تتوقف لحظةً – في العشرة آلاف عام تلك – عن إنتاج ظواهر أخرى مثلك، فسيكون ذلك مواساة لك.

**ثراس**: بلى! إنَّكَ تحسبُ أنك سوف تنزعُ عني فرديتي ببطء باستخدام كلامك المنمّق، ولكنني واعٍ لحيلك. أقولُ لك إنني لن أوجد إن لم أحظَ بفرديتي. ولن يثنيني عن ذلك «قوةٌ غامضة» ولا ما تسميه «ظواهر». لا أستطيع أن أستغني عن فرديتي، ولن أتخلى عنها.

**فيل**: أنت تقصد، على ما أظن، أن فرديتك شيءٌ ممتعٌ، ورائعٌ جداً ومثاليٌ جداً ويتجاوز أي مقارنة، بحيث إنك لا تستطيع أن تتخيل أي شيء أفضل. ألست مستعداً للتخلي عن وضعك الحالي مقابل وضع يحتملُ أن يكون متفوقاً عليه وأكثر راحة، إذا ما حكمنا عليه بما قيل لنا عنه.

**ثراس**: ألا ترى أن الفردية مهما كانت هي ذاتي؟ فهي بالنسبة إلي أهم شيء في العالم.

لأن الإله هو الإله، وأنا أنا....

أنا أريد أنا أوجد، أنا، أنا. هذا هو الموضوع الرئيسي. لا يعنيني

وجودٌ يتطلب أن تثبتهُ لي من قبل أن أصدقه.

فيل: فكر بما تفعله! عندما تقول 'أنا أنا أنا أريد أن أوجد' فأنت لست وحدك الذي يقول ذلك، بل كل شيءٍ يقوله، كل شيءٍ لديه أقل القليل من الوعي. ويُستنتجُ من ذلك أنَّ رغبتك هذه هي جزء من **لافرديَّتك**، بل هي الجزء المشترك بين كل الأشياء بلا استثناء. إنها هذه الصرخة، ليست صرخة الفرد، بل صرخة الوجود نفسه، إنها جوهرية في كل ما يوجد، بل هي سبب أي وجودٍ على الإطلاق. هذه الرغبة تشتهي الوجود بشكل عام ولا تقنع إلا بـه، وليس بأي وجود فردي محدد. لا! هذا ليس هدفها، ولكنها تبدو كذلك لأن هذه الرغبة – هذه **الإرادة** – لا تحصل على الوعي إلا داخل الفرد، ولذلك تبدو وكأنها لا تهتم بشيء إلا الفرد. وهنا يكمن الوهم، ومن الصحيح أنه وهمٌ يُحكِمُ وثاقهُ على الفرد: ولكن الفرد إذا تأمّلَ ملياً سيستطيع أن يكسرَ قيودَه ويتحرَّرَ منه. إن الفرد لا يملك هذه الرغبةَ العنيفةَ بالوجود إلا بشكل غير مباشر، بل إن **إرادة الحياة** هي الراغبُ الحقيقيُّ والمباشر– وتتشابهُ وتتطابقُ في كل الأشياء. بما أن الوجود، إذاً، العملُ الحرُّ للإرادة، بل مجردُ انعكاسٍ لها، فحيثُ يكون الوجود هنالك أيضاً سوف تكون الإرادة. وللّحظةِ الراهنة تجدُ الإرادةُ إشباعها في الوجودِ بحد ذاته، أقصدُ، بقدر ما تستطيعُ الإرادة التي لا ترتاح أبداً، بل تندفع إلى الأبد نحو الأمام، أن تجدَ أي إشباع على الإطلاق. إن الإرادة لا تكترثُ بالفرد: فالفردُ ليس شغلها، مع أن ذلك كما قلتُ يبدو لنا أنه حال الأمور، لأن الفرد ليس لديه أي وعيٍ عن الإرادة إلا في نفسه. وتأثيرُ ذلك يجعلُ الفرد حريصاً على الحفاظ على وجوده، ولولاهُ لما كانت

هنالك ضمانةٌ للحفاظ على الفصيلة. من كلِّ ذلك يتضح أن الفرديةَ ليست شكلاً من الكمال، بل من المحدودية، والتحرر منها بالتالي ليس خسارةً بل مكسبٌ. لا تتعب نفسك أكثر من ذلك في هذه المسألة. أَدْرِكْ مرةً واحدةً بدقة ماهيتك، ما هو وجودك فعلاً، ألا وهو الإرادة الكونية للحياة، وكل هذا السؤال سيبدو لك طفولياً وشديد السخف!

**ثراس:** أنت الطفولي وشديد السخف، ككل الفلاسفة! وإن كان رجلٌ في عمري يدخلُ في حوار مدة ربع ساعة مع مثل هؤلاء الحمقى، فسبب ذلك أنه يسليني ويُمررُ الوقت. عندي أعمالٌ أهمُّ أذهب إليها، وداعاً.

# ملاحظات سيكولوجية

(1)

ثمةَ بلاغةٌ غيرُ واعية في استعمال كلمة person بشكل اعتيادي في كل اللغات الأوروبية للتعبير عن إنسان. إن المعنى الحقيقي لكلمة persona هو «قناع»، كالذي كان يرتديه الممثلون على المسرح القديم، ومن الحقيقي فعلاً أن لا أحد يظهر نفسه كما هو، بل يرتدي قناعه ويؤدّي دوره. بل إن كل ترتيباتنا الاجتماعية يمكن تشبيهها بكوميديا لا تنتهي، ولهذا يجد الإنسان ذو القيمة المجتمعَ بلا طعم، بينما يشعر الأحمق بمتعة كبيرة فيه.

(2)

يستحق العقل أن ندعوه نبياً، فعندما يرينا عواقب أفعالنا وتأثيراتها في الحاضر، ألا يخبرنا عن المستقبل أيضاً؟ هذا هو بالضبط السبب الذي يجعل من المنطق قوة ضبط ممتازة في اللحظات التي يسيطر علينا فيها شغف ما، نوبةٌ ما من الغضب أو رغبةٌ حسودة، والتي تقودنا إلى فعل أشياء نندم عليها فوراً.

الكراهية تأتي من القلب، والاحتقار من العقل، والاحتمالان كلاهما خارج إطار سيطرتنا. لأننا لا نستطيع ان نغير قلبنا، فأساسُه تحدده

الدوافع، وعقلُنا يتعاملُ مع الوقائع الموضوعية، ويطبق عليها قواعداً صارمة. كل فردٍ هو اجتماعُ قلبٍ معين مع عقلٍ معين.

الكراهية والاحتقار متعارضان كلياً ولا يتقاطعان. هنالك أيضاً حالات غير قليلة حيث تكون الكراهية الموجهة نحو شخص ما لا تنبعُ إلا من الاحترام القسري لتفوقه. وعلاوة على ذلك، لو أن الإنسان بادر إلى كراهية كل المخلوقات التعِسة التي يقابلها، فلن تبقى لديه طاقةٌ ليفعل شيئاً آخر، ولكنه يستطيعُ أن يحتقرهم، الفردَ منهم والكل، بسهولة كبيرة. من الصحيح أن الاحتقارَ الحقيقي ليس إلا معكوسَ الفخر الحقيقي: فهو يبقى خافتاً إلى حد كبير ولا يُظهرُ علاماتٍ على وجوده. لأنه إذا أظهرَ رجلٌ أنّه يحتقرك، فهو يظهر لك هذا القدرَ على الأقل من شعوره تجاهك: أنه يريدك أن تعلمَ كم يراك صغيراً، ورغبته هذه تحكمها الكراهية، والتي لا يمكن أن توجد إلى جانبِ احتقارٍ حقيقي. بل على العكس، إذا كان الاحتقارُ حقيقيّاً، فهو ليس إلا قناعةً بأن الرجل الذي هو محط الاحتقار رجلٌ بلا قيمة على الإطلاق. الاحتقارُ قد يسمحُ بالمعاملةِ المتسامحةِ والطيبةِ، لأن الإنسان – من أجل الحفاظ على السلامِ والأمان – يمتنع عن إزعاج من يحتقرهم: إذْ ليسَ ثمةَ من هو عاجزٌ عن فعل الأذى إذا ما استُفِزْ. ولكن إذا أظهرَ هذا الاحتقارُ الصافي والبارد والصادق نفسَه للآخر فسوف يلاقي الكراهيةَ الأكثر عدائية مصوبة نحوه، لأن الإنسان المُحتقر ليس في موضعٍ يسمحُ له بمحاربة الاحتقار بأسلحة الاحتقار نفسها.

(3)

الميالنخوليا شيء مختلف جداً عن المزاج السيء، ومن بين الاثنين هي

الأقل بُعداً عن صفات السعادة والسرور. **الميلانخوليا** تجذب، بينما **المزاج** السيء يدفع بعيداً.

**الهيبوكوندريا** فصيلةٌ من العذاب لا تجعلنا غاضبين من وقائع الحاضر وحسب، ولا تملؤنا بقلق لا أساس له مما يخبئه المستقبل من مصائب من صنعنا الذاتي وحسب، بل تقودنا أيضاً إلى جَلْدٍ للذات لا فائدة منه بسبب ما فعلناه في الماضي.

تظهر **الهيبوكوندريا** نفسها في السعي الذي لا ينتهي خلف أشياء تُربك وتزعج، ومن ثم إطالة التفكير فيها. وسبب ذلك هو عدمُ الرضا الداخلي المَرَضي، وكثيراً ما يترافق مع مزاج قلق بطبيعته. وفي حالاتها القصوى، يؤدي عدم الرضا هذا، وعدم الارتياح، إلى الانتحار.

(4)

أي حدث يحرّك شعوراً مزعجاً - أيّاً كانت سخافة الحدث - يترك تأثيراً باقياً في عقلنا، وما دامَ ذلك التأثيرُ موجوداً فينا فهو يمنعنا من اتخاذ وجهة نظر موضوعية نحو الأشياء حولنا، ويطمسُ كل أفكارنا: بالطريقة نفسها التي يقوم بها غرض صغير موضوع أمام العين بتشويه وقَصْرِ رؤيتنا كلها.

(5)

ما يجعل الناس قساة القلوب هو أن كل رجل لديه ما لهُ طاقةٌ على تحمُّله من المشكلات، أو إنه يظنُّ ذلك، وعلى هذا الأساس، إذا وجدَ إنسانٌ نفسه في موقع سعيدٍ على نحو غير معتاد يصيرُ في أكثر الحالات أكثرَ تعاطفاً ولطفاً. ولكن لو أنّه لم يخْبُر الحياةَ إلا من موقع سعيد، أو

أصبحت هذه حالتُه الاعتيادية، فإنَّ تأثيرَ ذلك فيه يكون معكوساً تماماً: فهو يبعدُه عن المعاناة إلى الحدِّ الذي لا يستطيع معه أن يشعر بالتعاطف مع من يعانون. ولذلك فإن الفقراء كثيراً ما يظهرون كرماً في المساعدة أكبر من الأثرياء.

**(6)**

يبدو لنا أحياناً أننا نريدُ، ولا نريدُ، الشيءَ نفسه، نشعرُ في آنٍ واحد أننا سعيدون به وآسفون عليه. على سبيل المثال: إن كنا سنخضعُ لامتحانٍ مِفصليٍّ ما في حياتنا في موعد محدد، وكان النجاحُ فيه يعني فائدةً كبرى لنا، فإننا نتمنى أن يحصُلَ على الفور، وفي الوقت نفسه نرتعدُ من فكرة اقتراب موعده. وإذا سمعنا في أثناء فترة التحضير أن تاريخ الامتحان تأجَّل، فإننا نشعرُ في آن واحدٍ بالسعادة والانزعاج، لأن هذا الخبر مخيبٌ للآمال، ولكنه على الرغم من ذلك يقدِّمُ لنا استراحةً لحظية. والحالُ نفسها لو أننا كنا ننتظرُ رسالة مهمة تحملُ قراراً مصيرياً، وتأخرت عن الوصول.

في مثل هذه الحالات هنالك في الواقع دافعان مختلفان يعملان في داخلنا: **الأول الأقوى** – ولكن الأبعدُ من بين الاثنين – هو الرغبةُ في التقدم إلى الامتحان وأن تكون نتيجتُه في صالحنا، **والثاني الأضعفُ** – وهو الذي يلمسُنا على نحو أقرب – ألا وهو رغبتُنا في أن نعيش في الحاضر بسلامٍ وهدوء، وبالتالي أن نستمتعَ بالمزيد من هذا الوقت المكتسب الذي يُبقينا معلّقين في حالةٍ من الأمل غير المؤكد، بدلاً من احتمالِ أن ينتهي الموضوع إلى غير مصلحتنا.

## (7)

في عقلي حزبٌ معارض منعقد دائماً، وعندما اتَّخذُ أي خطوة أو أصلُ إلى أي قرار – على الرغم من أنني أكون قد فكرت بالمسألة على نحو ناضج – يقوم الحزب بمهاجمة فعلي، وليس هذا الهجوم مبرراً في كل مرة. أعتقد أن هذا شكل من أشكال التقويم الذي تمارسه روحُ التمحيص التقويمية، ولكنها كثيراً ما تُقرِّعُني من دون أن أستحقَّ ذلك. والشيء نفسه يحصل من دون شك للكثيرين غيري: إذْ أين هو الرجل القادر على ألّا يسائلُ نفسه – في آخر المطاف – حول صحة ما أقدمَ عليه من أعمالٍ كان قد خطَّطَ لها بعناية فائقة:

Quid tam dextro pede concipis ut te
[40]Conatus non poeniteat votique peracti?

## (8)

لماذا تعبر كلمة «شائع» عن الاحتقار وتعبر كلمات «غير شائع» و«فوق العادة» و«مميز»، عن الاستحسان؟ لماذا كلُّ شائع محتقر؟

الشائع في معناها الأصلي تعبر عن المشترك بين كل الرجال، أي المشترك بين الفصيلة كلها، وعلى ذلك فهو جزء أصيل من طبيعتها. وبالتالي، فإن الرجل الذي لا يملك صفاتٍ تزيد على الموجود في العرق البشري بشكل عام هو إنسان شائع. «عادي» كلمة أقل قسوة، وتشير بالأحرى إلى الشخصية الفكرية، بينما «شائع» لها استعمال أخلاقي.

40. [من شعر جوفينال، شاعر لاتيني من القرن الميلادي الأول: 'أي عملٍ ذاك الذي باشرتَهُ بمهارةٍ فائقة بحيثُ لا تندمُ على بدايته وإنجازه؟' .Juvenal, Satires, 10]

**أيُّ صفةٍ يمكنُ للفرد أن يمتلكها حتى يتميزَ بها عن ملايين الآخرين من نوعه؟ هل أقول ملايين؟ بل عن عددٍ لا نهائي من المخلوقات التي تولدها الطبيعة، قرناً بعد قرن من ينابيعها الأبدية، ناثرةً إياها بكرمٍ غزيرٍ كما الشررُ الذي يتطاير من سندان الحداد.**

من الجليِّ أنَّ المخلوق الذي لا صفات له إلا صفات الفصيلة يجب أن لا يزعمَ إلا وجوداً محدوداً بشكل كامل ضمن حدود تلك الفصيلة، ويعيشُ حياةً مشروطةً بتلك الحدود. في العديد من المقاطع في عملي،[41] ناقشت بأن الحيوان الأدنى لا يمتلك ما يزيد على صفات فصيلته العامة، فالإنسان هو الكائن الوحيد الذي يحقُّ له ادعاءُ امتلاك شخصية فردية. ولكن هذه الشخصية الفردية – في معظم الرجال – لا تبلغُ الكثير في الواقع، ومن الممكن تصنيفهم جميعاً تقريباً تحت طبقات معينة: **Ce cont Especs**[42]. إن أفكارهم ورغباتهم، مثل وجوههم، تعود إلى الفصيلة، أو على الأقل، إلى الطبقة التي ينتمون إليها، وبناء على ذلك فهم ذوو شخصية تافهة وشائعة ذات طابع يومي، ويوجدون بالآلاف. وتستطيع في العادة أن تتوقع مسبقاً أنهم سيفعلون كذا أو يقولون كذا. ليس لديهم طابع أو بصمةٌ خاصة تميزهم، هم كالبضائع المصنعة، كلهم منسوخٌ عن أصل واحد.

إذا كانت طبيعتهم إذاً مندمجة مع طبيعة الفصيلة، كيف يمكن لوجودهم أن يتجاوزها؟ إن لعنة السوقية «**vulgarity**» تضعُ الرجال

---

41. Grundprobleme der Ethik, p. 48; Welt als Wille und *Vorstellung*, vol. i. p. 338.

42. [بالفرنسية: هُم عيناتٌ]

في مستوى الحيوانات الأدنى نفسه، وذلك عبر عدم السماح لهم بشيءٍ سوى الطبيعة العامة، طبيعة وجود متشابهة. وبناء على ذلك فإن أي شيءٍ سامقٍ أو عظيم أو نبيل لا بد أن يكون - في طبيعته نفسها، وبسبب طبيعته نفسها - بارزاً في عالمٍ لا نقدرُ فيه على إيجادِ تعبيرٍ أفضل للإشارة إلى ما هو منحط وكريه غير التعبير الذي ذكرته، أي: شائع.

(9)

الإرادة بصفتها الشيء في ذاته، هي أساسُ كل الوجود، إنها لُحمة كل مخلوق وسُداه، والعنصر الدائم في كل شيء. الإرادةُ إذاً هي ذلك الذي نملكه ككل الآخرين، بل ككل الحيوانات وحتى الأشكال الدنيا من الوجود. وعلى ذلك فإننا متشابهون مع كل شيء – بمقدار ما يمتلئُ كلُّ شيء بالإرادة حدَّ الفيضان. ومن جهة أخرى، فإن الذي يرفعُ مخلوقاً فوق الآخر، ويضع الاختلافات بين الإنسان والإنسان، هو العقل والمعرفة، ولذلك فعلينا، في كل تجسيد للذَاتِ، أن نُعمِلَ – بقدر ما يمكن – الفكرَ وحده. لأنه كما رأينا، الإرادة هي الشيء المشترك بيننا.

كل تعبير عنيف عن الإرادة شائع وعاميّ، بكلمات أخرى، هو يهبط بنا إلى مستوى الفصيلة، ويجعلنا مجرد صنفٍ منها ومثالاً عنها، وعلى ذلك يصبحُ ما نظهره هو صفة الفصيلة لا أكثر. فكل نوبة غضب شيءٌ شائع. وكلُّ إظهار غير مكبوت للحب والكراهية والخوف– بالمختصر: كلُّ نوع من المشاعر، وبكلمات أخرى، كلُّ حركة للإرادة – إن كانت قوية بحيث تكتسح العنصر الفكري في وعينا – تجعلُ الإنسان إذاً يبدو كائناً يريدُ بدلاً من أن يكون كائناً يعلمُ.

عندما يُسمح لهذه المشاعر ذات الطبيعة العنيفة أن تظهر، فإن كل

عبقري يضع نفسه في مستوى ابن الأرض الأكثر شيوعاً. وعلى العكس، لو أن شخصاً يرغب في ان يكون غير اعتيادي مطلقاً، بكلمات أخرى، أن يكون عظيماً، فعليه ألا يسمح أبداً لحركة إرادته أن تهيمن على وعيِهِ وتتحكم به، مهما كانت المسوغات لذلك. على سبيل المثال، يجبُ عليه أن يلاحظَ أن الآخرين ينظرون إليه بعدم ارتياح، من دون أن يشعر بأي كراهية نحوهم في نفسه، بل لا توجد علامة أكبر على العقل العظيم من أن يرفض الانتباه إلى التعبيرات المزعجة والمهينة، بل هو يعزوها فوراً – كما يعزو أخطاء أخرى لا تحصى – إلى النقص في معرفة المتحدث، وبالتالي يراقبُها من دون أن يشعر بها. هذا هو معنى قول «**غراسيان**»[43] بأنه «**لا شيء يليقُ بالرجل أقل من أن يسمح بظهور أنه رجل**»: El Mayor Desdoro De Un Hombre Es Dar:Muestras De Que Es Hombre.

وحتى في الدراما – التي هي الملعب الخاص للمشاعر والشغف – من السهل ظهورُ هذه المشاعر بشكل شائع وعامي. وهذا واضح على نحو خاص في أعمال كُتَّاب التراجيديا الفرنسيين، الذين لا يكترثون سوى بتصويرِ المعاناة عبر انهماكهم، في لحظة ما، في نوعٍ من السقم الخاوي الذي يجعلهم سخيفين، وفي لحظة أخرى يستخدمون بلاغات الكلام المنمق لإخفاء عامية موضوعهم. أتذكر أني شاهدت «**مادموزيل**

---

43. [Baltasar Gracian (1601-1658)، كاتب وفيلسوف إسباني، أشهرُ اعماله 'فن الحكمة الدنيوية' Oráculo Manual y Arte de Prudencia، وهو كتاب يجمع فيه حكماً ونصحاً مع تعليقاتٍ على هامشها. أُعجب شوبنهاور بالكتاب ونيتشه أيضاً، حتى إن شوبنهاور عمل على ترجمة للكتاب إلى الألمانية صدرت بعد وفاة شوبنهاور بسنتين. وللمزيد عن تأثر فلسفة شوبنهاور به انظر: Historical Dictionary of Schopenhaur's Philosophy, David E. Cartwright, Rowman and Littlefield, 2016, p.118.]

راشيل» المشهورة على صعيد النقد تؤدي دورَ «ماريا ستوارت». وعندما انفجرت غاضبةً في وجه «اليزابيث» – وعلى الرغم من أنها أدَّت المشهد بإتقان – فإنني لم أستطع سوى أن أتخيلها عاملة غسيل. ولعبت دورَ الوداع الأخير بطريقة تجرِّدهُ من كل التراجيديا الحقيقية، وهو شيء لا يملك الفرنسيون أدنى فكرة عنه. الدور نفسه أدَّته بأسلوب لا يتحمل المقارنة الإيطالية «ريستوري»،[44] وعلى الرغم من أن الطبيعة الإيطالية في العديد من جوانبها تختلف كثيراً عن نظيرتها الجرمانية، فهي تشاركها التقدير لما هو عميق وجدي وحقيقي في الفن، وفي ذلك يكمن التعارض مع الطبيعة الفرنسية التي تكشفُ دوماً أنها لا تملك شيئاً من هذا الشعور على الإطلاق.

العنصرُ النبيل – بكلمات أخرى: غير الاعتيادي في الدراما، بل ما هو سامٍ فيها، لا يتم الوصول إليه حتى يعملَ الفكر، بالتضاد مع الإرادة، حتى يحلِّقَ بحرية فوق كل تلك الحركات الشغوفة للإرادة، ويجعلها هدفاً لتأمله. يُبرهنُ شكسبير بتميّز أن هذا هو أسلوبه، وعلى وجه الخصوص في هاملت. عندما يرتقي الفكرُ إلى النقطة التي يتجسدُ فيها فراغُ الإرادة والجهود بأسرها أمامه، وتتحركُ الإرادة نحو إنهاء ذاتها، حينها، وحينها فقط، تكونُ الدراما التراجيدية حقيقيةً تستحق المعنى الحقيقي للكلمة: هنالك تصلُ إلى هدفها الجليل وروعتها الحقيقية.

---

44. [المسرحية المذكورة هي التي كتبها فردريش شيلر عام 1800 عن إعدام ماريا ستوارت ملكة اسكتلندا على يد ابنة عمها إليزابيث الأولى ملكة انجلترا في عام 1578. 'مادموزيل راشيل' هو الاسم الفني لـ 'إليزابيث فيلكس' (1821-1858): ممثلة فرنسية ذائعة الصيت أدّت الدور على ما يبدو في 1850. 'اديلايدي ريستوري' (1822–1906) ممثلة إيطالية مشهورة أدّت الدور نفسه عدة مرات. للمزيد عن فريدرش شيلر انظر بداية الفصل المعنون <عن المرأة> حيث يقتبس شوبنهاور عنه.]

كل إنسان يعتبرُ حدود معارفه هي حدود العالم. إن هذا خطأ في الفكر لا مهرب منه كما لا مهرب من الخطأ في العين التي تجعلنا نظن أن السماء والأرض تلتقيان في الأفق. هذا يفسرُّ أشياءَ كثيرةً من ضمنها أن الجميع يقيسنا بمعياره الخاص، ويكون ذلك في العادة على معيار مقاييس الخياط نفسها، وعلينا أن نتحمل ذلك، مثلما أنَّ لا أحد سيسمح لنا بأن نكون أطول منه: وهو افتراضٌ يؤخذُ على محمل المفروغ منه فوراً.

(10)

من المؤكد أن الكثير من الرجال مدين لحظِّه الذي منحه ابتسامة جميلة، وبذلك يكسب القلوب.

ولكن يستحسن للقلب أن يحذر، وأن يتذكر ما كتبه هاملت في دفاتره « قد يبتسم المرء ويبتسم، ويبتسم، ويكون مجرماً. »

(11)

كل شيء جوهري في الإنسان، وبالتالي أصيل، يعملُ على نحوٍ غير واعٍ، ويشابه في ذلك قوة الطبيعة. إن الذي يمر في مملكة الوعي يتحول عبر مروره إلى فكرة أو صورة، ولذلك فإنه إذا لُفظَ لا يكون سوى فكرةً أو صورةً تنتقلُ من شخصٍ إلى آخر.

وبالتالي، فإن أي صفة حقيقية وباقية للعقل أو الشخصية هي في الأصل غيرُ واعية، وحصراً عندما تشرعُ بالعمل في اللاوعي – تتركُ أثراً عظيماً. وإذا تمَّت ممارسةُ أي صفة من هذا النوع على نحو واعٍ فهذا يعني أنها مصنَّعة، مقصودة، وبالتالي تتعلق بالعاطفة، بكلمات أخرى،

بالخداع.

إذا فعل الرجل شيئاً ما بدون وعي، فهذا لا يكلفه خداعاً. ولكنه إن حاول أن يجتهد في فعله يخفق، وينطبق ذلك على الأفكار الجوهرية التي تشكل لُبَّ الأعمال العظيمة ونسغها. وحده ما هو فطريٌّ حقيقيٌّ ويحتملُ الاختبار، وكلُّ إنسان يريد أن يحقق شيئاً، سواءٌ أكان ذلك عملياً في الحياة، أم في الكتابة، أم في الفن، فعليه أن يتبع القواعد دون أن يعرفها.

(12)

يفضل الرجال ذوو القدرات العظيمة صحبة الأغبياء جداً على المتوسطين، وسببُ ذلك هو نفسه السببُ الذي يجعلُ كلاً من الطاغية والغوغاء، والأجداد والأحفاد: حلفاءَ طبيعيين.

هذا السطر من أوفيد:

[45] Pronaque cum spectent animalia cetera terram,

يمكن تطبيقه بمعناه الفيزيائي البحت على الحيوانات الدنيا وحدها، ولكن بالمعنى المجازي والروحي فإنه، يالِلحسرة، يكادُ ينطبقُ على جميع الرجال أيضاً. كل مخططاتهم ومشاريعهم تتوحدُ مع الرغبة بالاستمتاع الفيزيائي، والصحة الفيزيائية.

قد يكون عندهم، فعلاً، اهتمامات شخصية، وغالباً ما تنتمي إلى مجال شديد التنوع، ولكن هذه الأخيرة تحصلُ على كلِّ أهميتها من

45. ["بينما تحني الحيوانات وتنكِّسُ وجوهها إلى الأرض". Ovid, Metamorposis, 1, 84]

علاقتها مع الأولى. والدليلُ على ذلك واضحٌ: ليس من طريقة عيشهم والأشياء التي يقولونها وحسب، بل إنه يظهرُ أيضاً في شكلهم، وفي تعبيرات وجوههم، وطريقة مشيهم وحركات جسدهم. كل ما فيهم يصرخ: !In terram prona (مرميُّون على الأرض).

وأما ما يأتي بعده فهو ليس لهم، بل هو للنفوس الأنبل والأرقى طبيعةً، للرجال الذين ينظرون فعلاً ويفكرون حقاً في ما يحيط بهم في العالم، الذين يُشكلون عيناتٍ استثنائية من البشرية. هؤلاء ينطبق عليهم السطران التاليان:

Os homini sublime dedit coelumque tueri
Jussit et erectos ad sidera tollere vultus.[46]

(13)

لا أحد يعلم كم يملكُ من قدرات الفِعل والمعاناة في داخله حتى يأتي ما يستثيرها لتفعل فعلها: كما في بركة الماء الراكد التي تبقى في مكانها كالمرآة، حيثُ لا تظهرُ علامةٌ على والوحشية والزئير اللذين يمكن أن يقفزا من عمقها: بل تبقى على سكونها، ولا يظهر لنا كم في استطاعتها أن تنفثَ الماء نحو الأعلى كالنافورة، ولا نحس بالحرارة الكامنة تحت سطحها البارد.

(14)

ما هو السبب في أنْ لا إنسانَ يعلم كيف شكله؟ على الرغم من

46. ["للإنسان وحدهُ منح الرزانة الجليلة، وأمَره بالتطلع إلى الأعلى بنظرة سامية نحو النجوم في السماء"
[Ovid, Metamorphosis, 85-86

وجود كل تلك المرايا في العالم؟

قد يتذكر الإنسان شكلَ صديقه، لكن ليس شكله. لدينا هنا إذاً صعوبة أوليّة في تطبيق الحكمة الشهيرة: اعرف نفسك.

يكمن تفسيرُ ذلك في جزء منه، ولا بدّ، في استحالة رؤيةِ الإنسان نفسَه فيزيائياً في المرآة من دون أن يكون الوجه متوجهاً نحو الأمام بشكل كامل ويواجه المرآة من دون حركة، ولذلك تضيع معظمُ تعابير العيون، وهي تعني الكثير، وتُعبر في الواقع عن كامل شخصية الوجه. ولكن إلى جانب الاستحالة الفيزيائية، يبدو لي أنَّ هنالك استحالة أخلاقية مناظرة لها، وذات تأثير مشابه. لا يستطيع الإنسان أن ينظرَ إلى انعكاسه كما لو أن الشخص في الانعكاس غريب عنه، ولكن ذلك ضروري إذا أراد الحصول على وجهة نظر موضوعية. تعني النظرة الموضوعية في معناها الأبلغ شعوراً متجذراً لدى الفرد، بصفته شخصاً أخلاقياً، بأن هذا الذي يتأمله ليس نفسه[47]. وإن لم يستطع أن يتخذ وجهة النظر هذه فلن يرى الأمور كما هي في الواقع، وهذا شيءٌ غير ممكن إن لم يكن واعياً لعيوبها الحقيقية، تماماً كما هي. وبدلاً عن ذلك، عندما ينظر الرجل إلى المرآة فهو يرى نفسه في الزجاج، ويهمس له شيءٌ من طبيعته النرجسية بأن يتذكر أن ما ينظر إليه ليس غريباً، بل هو ذاته حقاً، ويكون هذا على هيئة **Noli Me Tangere**[48]، ويمنعه من اتخاذ وجهة نظر موضوعية. بل يبدو بالفعل أن مثل هذه النظرة الموضوعية

47. قارن .Grundprobleme der Ethik, p. 275

48. [حرفياً "لا تلمسني". وهي إشارة إلى يوحنا 20:17: " قَالَ لَهَا يَسُوعُ: "لاَ تَلْمِسِينِي لأَنِّي لَمْ أَصْعَدْ بَعْدُ إِلَى أَبِي. وَلكِنِ اذْهَبِي إِلَى إِخْوَتِي وَقُولِي لَهُمْ: إِنِّي أَصْعَدُ إِلَى أَبِي وَأَبِيكُمْ وَإِلهِي وَإِلهِكُمْ."]

مستحيلة من دون وجود شذرة من خميرة الشر.

بقدر ما تُمارس طاقة الإنسان العقلية، أو تسترخي، فإن الحياة تبدو له إما قصيرة أو سخيفة أو عابرة، وأن لا شيء يمكن أن يحدث يستحقُّ جهده وبذله لمشاعره، وأن لا شيء يهمُّ في الواقع، سواء أكان الثروات أم اللذات، أو حتى الشهرة، وأنه مهما كانت الطريقة التي يخفق فيها الإنسان، فهو لا يستطيع أن يخسر الكثير. ومن جانب آخر فإن الحياة تبدو طويلة، ومغرقة في اللاأهمية، وبالتالي وفي المحصلة: هي مفعمةٌ بالزخم وممتلئة بحيثُ علينا أن ننغمسَ فيها بروحنا كاملة إن كنا سنحصلُ على شيء من ثروتها، ونحقِّق مكاسبها، وننفذ خططنا. هذه الأخيرة هي وجهة النظر السائدة والشائعة عن الحياة، وهي ما يعنيه «غراسيان» عندما قال: Tomar Muy De Versa El Vivir (أخذ الحياة على محمل الجد). والنظرة السابقة هي النظرة المتعالية «Transcendental» والتي تظهر على نحو جلي في قول أوفيد Non Est Tanti [49] (لا يستحق هذا العناء). والأفضل من الاثنتين على كل حال، هي ملاحظة أفلاطون أنْ لا شيء في الشؤون البشرية يستحق قلقاً كبيراً: «باليوناني: Oute Ti Ton Aanthropinon Axion Sti Megalas Spudes.».

**النظرة الأولى** من التفكير: تنتج عن أن المعرفة ارتقت بفعل الوعي، فتحررت من مجردِ خدمة الإرادة، وباتت تستوعبُ ظواهر الحياة

49. ["لا يستحق [التنافس الموسيقي] هذا العناء"، يقولها الُساتير' مارسياس عندما يتلقى عقوبة سلخ جلده عن جسده إثر خسارته تحدياً موسيقياً مع الإله أبولو، كما يروي الأسطورة أوفيد في (Metamorphosis, VI, 382-400).]

بموضوعية، ولا تُخفق في الانتباه الدقيق إلى طبيعتها الفارغة والعقيمة. ولكن في **النظرة الثانية**: تهيمن الإرادة، ولا تصبح المعرفة إلا نوراً يضيء طريق الوصول إلى رغباتها.

يكون الرجل عظيماً أو ضئيلاً حسب اختياره بين وجهتي النظر هاتين في الحياة.

(15)

الناسُ ذوو المقدرات الفذة لا يتأثرون كثيراً بالاعتراف بأخطائهم ونقاط ضعهفم، أو بتركها مكشوفة أمام الآخرين، فهم يرونها شيئاً قد دفعوا ثمنه الكافي، وبدلًا من أن يروا في مواطن الضعف هذه عاراً عليهم، يرون فيها شرفاً لهم. هذا هو الحال على نحو خاص في الأخطاء التي تكون مرتبطة على نحو وثيق بصفاتهم أو: Conditions Sine Quibus Non (شروطٌ لاغني عنها). أو كما قال جورج ساند[50]: Les Defants De Ses Vertus **(العيوب التي تصحبُ الفضيلة)**.

على العكس من ذلك، هنالك أشخاص ذوو شخصيات حميدة وقدرات فكرية لا تضاهى، ولكنهم بدلاً من أن يعترفوا بمواطن ضعفهم القليلة، يخفونها بعناية، ويتحسسونَ جداً من أي إشارة إلى وجودها. وهذا لأن قيمَتهم ككل تتكونُ من خلوِّهم من الأخطاء والضعف، فلو تَكشَّف أن هؤلاء الأشخاص قد فعلوا شيئاً سيئاً فإن سمعتهم سوف تتدهور فوراً.

---

50. [جورج ساند الاسم المستعار الذي استخدمته الكاتبة والروائية الفرنسية Aurore Dupin (1804-1876)]

## (16)

لدى الناس ذوي القدرات المتوسطة، يكونُ التواضع مجرد صدق، ولكن لدى الذين يمتلكون مواهب فذة فهو نفاق. وعلى ذلك، فإن الأجدرَ بأصحاب المواهب ألا يخفوا احترامهم لأنفسهم وأن لا يخبئوا وعيَهم لقدرتهم الفائقة للعادة، وذلك تماماً كما يليق بأصحاب القدرة المتواضعة أن يكونوا متواضعين. يعطينا فاليريوس ماكسيموس أمثلةً رائعة على ذلك في الفصل المعنون:

De fiducia Sui (عن الثقة في النفس)[51].

## (17)

من لا يذهب إلى المسرح كمن يرتدي ثيابه بلا مرآة. ولكن الأسوأ من ذلك هو اتخاذ قرار دون استشارة صديق. لأن الإنسان قد يملك أفضل قدرات المحاكمة في كل الأمور، ولكنه يخطيء في تلك التي تخصُّ نفسه، لأن الإرادة هنا تتدخلُ وتفسدُ الفكرَ فوراً. ولذلك فليستشرِ الرجلُ صديقه. الطبيبُ يستطيع أن يشفي الجميع إلا نفسه، فإذا مرض،

51. Valerius Maximus]: كاتب روماني من القرن الأول الميلادي جمع حكايات تاريخية في عدة مؤلفات، يتضمن الفصل الذي يشير إليه شوبنهاور بضعاً من القصص، وقد تكون أكثرها صلةً بالمعنى الذي يقصده قصتان. **الأولى**: قصة '**يوربيدس**' الذي احتجَ أهلُ أثينا على سطر في إحدى تراجيدياته، فأجاب: "إنني أكتب المسرحيات حتى أُعلِّمهم، وليس كي أتعلّمَ منهم". **والثانية**: عزيمةُ **حنبعل** على خوض الحرب على الرغم من منفاه، حيث يُنذره ملكُ 'بيثينيا' أن العرّافين قد تكهّنوا في شقوق كبدٍ، وتنبأوا بفشل الحرب، فيجيبه حنبعل: "أتفضّلُ أن تثقَ في لحم خروفٍ أم في جنرالٍ عجوز؟". وخاض حنبعل تلك الحرب فعلاً متحالفاً مع الملك – وحقق عدة انتصارات في معارك بحرية وبرية منها.

للمزيد من الفصل انظر: Memorable Doings And Sayings, D. R.

وأيضاً: Valerius Maximus, Samuel Speed, Benjamin Crayle & John Fish, 1684, chap. VII, P.133.[

يرسلُ في طلبِ طبيب زميل.

(18)

في كل ما نفعله، نتمنى، إلى حدٍ ما أو آخر، أن نصل إلى نهايةٍ لا نصبر عن الوصول إليها ونكون سعيدين بأن ننهي الأمر. ولكن آخر مشهد على الإطلاق، النهايةُ العامة، هي شيء نمتنى بشكل عام أن يتأخرَ قدرَ الإمكان.

(19)

كل فراق نذيرٌ بالموت، وكل اجتماع بشارةٌ بالبعث. هذا هو السبب الذي يجعل حتى الناس الذين لا يكترثون ببعضه بعضاً يبتهجون كثيراً إذا ما التقوا بعد عشرين أو ثلاثين عاماً من الفراق.

(20)

الفكر يختلف من إنسان إلى آخر بطريقة حقيقية وجذرية فعلاً: ولكن لا يمكن إقامة مقارنة بمجرد الملاحظات العامة. من الضروري الاقتراب، والدخول إلى التفاصيل. لأن الاختلاف الموجود لا يمكن أن نراه من بعيد، وليس من السهل الحكم عليه بالمظاهر الخارجية، كما هو الحال في الكثير من المسائل كالتعليم والراحة والوظائف. ولكن حتى لو حكمنا باستخدام هذه وحدها، فلا بد من الاعتراف بأن الكثير من الرجال لديه **درجة من الوجود** تفوق غيره بعشر مرات على الأقل، بكلمات أخرى: هو موجودٌ عشر مرات أكثر منه.

أنا لا أقصد هنا المتوحشينَ الذين لا تعلو حياتهم كثيراً فوق القرود في الغابات. تأملْ، على سبيل المثال حمَّالاً في «نيبال» أو «البندقية» (ففي

شمال أوروبا تجعلُ أشهر الشتاء البارد الناسَ يميلونَ إلى التفكُّر وبالتالي إلى التأمل)، انظرْ إلى الحياة التي يعيشها من البداية إلى النهاية: يقودهُ الفقر، ويعيشُ من قدرته الجسدية مؤمناً احتياجات يومه، بل احتياجات ساعته، كل ذلك عبر الشقاء في العملِ والجهد الجهيد والمعاناة المستمرة، والحاجة بكل أشكالها، دونما أي تفكير في الغد، راحتُه الوحيدة هي الاسترخاءُ بعد التعب، يدخل في مناكفات دائمة، ولا تمر لحظةٌ يكون فيها حرّاً للتأمل: تلك المُتع التي لا يسمح بها سوى المناخ المعتدل والطعام الكافي. ومن ثم يأتي العنصر الميتافيزيقي في آخر المطاف: إيمانهُ الخرافي بكنيسته، ويُجْملُ كلِّ ذلك يشكلُ طريقة من الحياة لا تحتوي إلا على قدرٍ قليل من الوعي، حيث يصارع الإنسان، أو يُرغم على الصراع بالأحرى، طوال فترة وجوده. يشكلُ هذا الحلم المرتبك والخالي من الراحة حياةَ عدد لا نستطيع تقديره من الملايين!

هؤلاء الرجال لا يفكرونَ إلا بالقدر الضروري ليُمكنهمْ من ممارسةِ إرادتهم على اللحظة. لا يتأملون حياتهم ككلٍ متصلٍ أبداً، ناهيك إذاً، عن تأمل الوجود ككلّ، إلى حد ما يمكن القول بأنهم يوجدون من دون أن يعرفوا بذلك. إن وجودَ رجل العصابة أو العبد الذي يعيش بهذه الطريقة معدومة التفكير، يشابهُ وجود الوحش أكثرَ بكثير من وجودنا: فهو محدودٌ بشكل كامل باللحظة الراهنة. ولكن، ولذلك السبب بالذات، فإن عنده ألمٌ أقل من ألمنا. بل بما أن اللذةَ كلها بطبيعتها سلبية، أي أنها تتكونُ من التحرر من نوعٍ ما من الحاجة أو البؤس، فإن التبادلَ الدائم والسريع بين بذل المصاعب وإنهائها، وهو الشكلُ المستمر للعمل الذي يقومون به، والذي يعدو للظهور بشكل أقوى عندما ينجزون آخر

عملهم ليتنقلوا إلى الراحة وإشباع حاجتهم: كل هذا يمنحهم مصدراً ثابتاً من المتعة، والواقع أن العثور على الوجوه السعيدة بين الفقراء أسهلُ من العثور عليها بين الأغنياء؛ وهذا دليل أكيد على خصوبة هذا المصدر من السعادة.

وإذا تركنا هذا الرجل، فلنتأمل الآنَ الرجلَ العقلاني الصاحي، الذي يعيش حياة من التوقع، ويفكر طويلاً في خططه وينفذها بعناية كبيرة، ويؤسسُ منزلاً ويوفّرُ حياةً لزوجته وأبنائه وأطفالهم، ويأخذ حصته أيضاً من الحياة الاجتماعية. من الواضح أن رجلاً كهذا يمتلك قدراً أكبر بكثير من الوعي من سابقه، وبالتالي فإن وجوده له درجة أعلى من الحقيقيّة.

ومن ثم انظر إلى رجل العلم، ذلكَ الذي يحقّقُ في الأمور، ولننقلْ في تاريخ الأمور. لقد وصل مثلُ هذا الرجل إلى النقطةِ التي يصبح فيها واعياً للوجود ككل، ويرى أبعد من فترة حياته، وأبعد من مصالحه الخاصة، ويتأمل كاملَ مسارِ العالم.

وأخيراً انظر إلى الشاعر أو الفيلسوف، والذي بلغ التأمل فيها مرتقى عالياً، بحيث، بدلاً من أن يحقق في إحدى ظواهر الوجود، تراهُ يقف حائراً **أمام الوجود نفسه**، هذا «**السفينيكس**»[52] العظيم، ويجعله

---

52 [Sphinx: الكائن الأسطوري المشهور (بجسد أسد ورأس إنسان وجناحين)، والذي تقول الأسطورة أنه احتل مدينة طيبة ومنع أياً كان من دخولها قبل الإجابة على أحجيته المشهورة: "ماالذي له صوتٌ واحد، تمشي على أربع وعلى اثنتين وعلى ثلاث؟" ويقتلُ **السفينكس** من يخفقُ في الإجابة. حلَّ **أوديب** الأحجية بجوابه: (الإنسان). وتختلف الأحجية والإجابة في النسخ المتعددة للأسطورة، ولكن ما يقصد إليه شوبنهاور هو أن الفيلسوف أو الشاعر يتحول مجازياً إلى صرحٍ أسطوري من الأسئلة الملغزة حول البشرية والعالم.]

**مشكلتَه. لقد وصلَ الوعي فيه درجةً من الصفاء يعتنقُ فيها العالم بأسره: لقد تخلى فكرُه بشكل كامل عن وظيفته كخادمٍ للإرادة، والآن يحمل العالم أمامه، والعالم يدعوه أكثر فأكثر ليفحصهُ ويتأمله... أكثر بكثير من أن يؤدي فيه دوراً ما بنفسه. إن كان بالإمكان القول إذاً أن درجة الوعي هي درجة الوجود، فإن رجلاً كهذا ينبغي أن يقال عن أنه أكثرُ الكائنات وجوداً، ويكون ثمة منطقٌ وأهمية في وصفه بذلك.**

**في طرفي النقيض اللذين رسمتهما هنا، والمراحل العابرة بينهما، يستطيع الجميعُ أن يجد مكانه.**

(21)

نحن نعلم أن الإنسان بشكلٍ عام متفوقٌ على كافة أنواع الحيوانات، وهذا صحيح أيضاً من حيث قدرته على التدرّب. المسلمون يتدربون على الصلاة 5 مرات متوجهين نحو مكة، ولا يفوتون موعداً واحداً. المسيحيون مدربون على رسم إشارة الصليب في مناسبات معينة، وعلى الانحناء، وهلم جرا. فعلاً، يمكننا القول أن الدين هو أعجوبةُ فن التدريب، لأنه يدرِّبُ الناسَ على الطريقة التي يفكرون بها: وكما هو معروفٌ بشكل عام، كلما بدأت العملية في عمرٍ أبكر كل ما كان ذلك أنجع. ليس هنالك قناعة يبلغُ سخفها حداً لا يسمح بترسيخها في عقلِ طفل دون الخامسة، وذلك عبر تكرارها المستمر في جوٍّ من الإجلال. لأن تدريبَ البشر – كما في حالة الحيوانات – يكون أنجع عندما يبدأ في الصغر.

النبلاء والسادة المحترمون يتدربون على عدم تقديس شيء سوى كلمة الشرف، ليحافظوا على إيمان متعصب ومتحجر وراسخ بقانون

الفرسان السخيف، وكي يحترموه إذا ما تم استدعاؤهم لممارسته، فيُثبِتُونَ إيمانهم بالموت في سبيله، ويعتبرون المَلِك – بكل جدية – كائناً من مقامٍ أعلى.

مرة أخرى: إن سلوكنا المؤدب، والمديح الذي نقدمه، وعلى وجه الخصوص على هيئة اهتمامنا بالسيدات، كلها مسائل تدريب. وكذلك أيضاً تقديرنا لمسائل النسب النبيل والمستوى الاجتماعي والألقاب وهلم جرا. ومن الطينة نفسها، الاحتقارُ الذي نشعر به نحو أي إهانة تُوجَّهُ نحونا. ويمكن تقديرُ حجم ذلك الاحتقار بدقة عبر طبيعة الإهانة، فالرجلُ الإنجليزي مثلاً يراها إهانةً لا تغتفر إذا قيل أنه ليس رجلاً محترماً «Gentleman»، أو أسوأ من ذلك، إن قيل إنه كاذب، وأما الفرنسي تنتابه نفس المشاعر لو دعوته جباناً، والألماني إن دعوته غبياً.

هنالك الكثيرُ من الناس المدرَّبين على التعامل بكرامة في مسألةٍ معينة بينما تنقصهم الكرامة في أشياء أخرى. الكثيرُ من الرجال مثلاً لا يمكن أن يسرقَ مالك، ولكنه سوف يضعُ يديه على كل ما يستطيعُ التمتع به من دون أن يدفعَ ثمنه. كثيرٌ من التجار يخدعكَ دونما أدنى وازع، ولكنه يرفض قطعاً أن يرتكب سرقة.

تكون المخيلة قوية في الرجل عندما تتفعّلُ وظائف الدماغ التي تمكنه من الانتباه دونما أي تأثير من الأشياء الخارجية. الفترات الطويلة سواء في السجن أو في غرفة وحيدة: السكون والشَّفق والظلام – هذه هي الأشياء التي تحفز نشاط المخيلة. وتحت تأثير هذه الأشياء يدخلُ الخيال في تفاعله مع نفسه. من جهة أخرى، عندما تحصل وظائفنا الإدراكية على كمية كبيرة من الماديات، كما يحصل في رحلة، أو في ضوضاء العالم،

أو في نور الشمس الساطع، فإن المخيلة تصبح خاملة، وحتى لو استُدعيت، فإنها ترفضُ أن تكون فاعلة، كما لو أنها تفهمُ أن هذا ليس وقتها الملائم.

ولكن إن كان مقدراً للمخيلة أن تنتج أي منتجٍ حقيقي فعليها أن تحصلَ على كمٍ كبير من المواد من العالم الخارجي، فهذه هي الطريقة الوحيدة لملء مستودعها. إن الخيالَ يتغذى كما يتغذى الجسم، الذي ما إن يتلقى طعامه يباشرُ بهضمه ويصبحُ أقل قدرة على القيام بأي عمل ويتلذذ بالتراخي. وعلى الرغم من ذلك فإنه يدينُ لهذا الطعام نفسه بالقوة التي يمتلكها ويمارسها في ما بعد في الوقت الصحيح.

(22)

الرأي **كالنوّاس** (البندول) ويتبعُ نفس القانون: إذا تجاوز مركز الجاذبية من جهة فعليه أن يبتعد مسافة مساوية في الجهة المعاكسة، ويمر في فترة معينة من الزمن قبل أن يجد النقطة الحقيقية التي يستطيع فيها أن يرتاح.

(23)

عبر عملية من التناقض، تجعل المسافةُ عبر الفراغ الأشياءَ تبدو أصغر، وبالتالي خالية من العيوب. لذلك يبدو المنظرُ الطبيعي أجمل بكثير إذا رأيته في مرآة مقعرة أو في Camera Obscura،[53] مما هو عليه في الواقع. التأثير نفسه يحصل بمسافة الزمان. ففي عيون الذاكرة،

53. [الحجرة المظلمة، غرفة مظلمة أو صندوق صغير مظلم، يحتوي على ثقب يمر منه الضوء من المشهد الخارجي لينعكس مقلوبا على سطح مجهز في الداخل، بقيت مستخدمة حتى القرن التاسع عشر للترفيه ولإنتاج لوحات واقعية بسهولة.]

ترتدي أحداثُ الماضي ومشاهده والأشخاص الذين شاركوا فيه زياً متألقاً، لأن الذاكرة لا ترى إلا الخطوط العريضة ولا تنتبه إلى التفاصيل المزعجة. الحاضرُ لا يحتوي على مثل هذه المزايا، ولهذا يبدو دوماً مشوباً.

ومرةً أخرى، وفي ما يخص الزمن، تبدو الأشياء الصغيرة القريبةُ منا كبيرة، وإن كانت قريبة جداً فقد لا نستطيع أن نرى شيئاً آخر، ولكننا عندما نبتعد قليلاً تصبح هذه الأشياء صغيرة وغير مرئية. والأمر نفسه أيضاً فيما يخص الزمن، فتملؤنا حوادثُ الأيام الاعتيادية ومواقفُها بالمشاعر، والقلق، والانزعاج، والشغف، ما دامت قريبة منا وتبدو كبيرة ومهمة وجدية جداً، ولكن ما إن يحملها في تيار الزمن المنسرح حتى تخسر قيمتها عندنا، ولا نعود إلى التفكير فيها وننساها بالكامل. لم تكن كبيرة إلا لأنها كانت قريبة.

(24)

الفرح والحزن ليسا فكرتين في العقل، بل مشاعرُ للإرادة، ولذلك لا يقعان في مملكة الذكريات. لا نستطيع أن نتذكر أفراحنا وأحزاننا، أقصد أننا لا نستطيع تجديدها. لا نستطيع سوى تذكر الأفكار التي صاحبتها. ونتذكر، على وجه الخصوص، الانطباعات التي أحدثتها فينا الظروف، وهذه تشكل مقياس مشاعرنا في ذلك الوقت. ولذلك فإن ذكرياتنا عن الأفراح والأحزان دوماً غير مثالية، وتصبح شيئاً لا نكترث به بعد أن تنتهي. هذا يفسر سخافة محاولتنا – التي نقوم بها أحياناً – لإحياء ملذات وآلام الماضي. السعادة والألم بشكل جوهري مسائل تخص الإرادة، والإرادة – بحد ذاتها وكما هي – لا تملك ذكرياتٍ، فالذكريات من توابع الفكر. والفكر بدوره لا يأخذ ولا يعطي إلا الأفكار

والخواطر، والتي ليست هي موضوعنا.

من المثير للاهتمام أننا في الأيام السيئة نتذكر على نحو دقيق جداً الأوقات الجيدة التي اندثرت، ولكننا في الأيام الجيدة لا نملك إلّا ذاكرة باردة ومنقوصة جداً عما كان سيئاً.

(25)

لدينا ذاكرة أفضل بكثير عن الأشياء والصور مما لدينا عن المفاهيم. ولذلك فإن من يملكون مخيلة جيدة يتعلمون اللغات بسهولة، لأن الكلمة الجديدة تتحد – بمساعدة الخيال – مع الشيء الذي تشير إليه، بينما إن لم يكن ثمة مخيلة، فإن الكلمة الجديدة تجلس بمحاذاة نظيرتها في اللغة الأم وحسب.

لا يجوز أن تكون الأدوات الاستذكارية[54] مجردَ طريقة لإبقاء شيءٍ ما في الذاكرة بشكل غير مباشر عبر استخدام خدع لغوية. بل ينبغي بدلاً من ذلك أن يتم تطبيقها على نظرية منهجية للذاكرة، وأن تشرح مميزاتها المتعددة عبر الإشارة إلى طبيعتها الحقيقية، ومن ثم عبر الإشارة إلى العلاقات التي ترتبط فيها هذه المميزات مع بعضها بعضاً.

ثمة لحظات في الحياة تصل فيها حواسنا إلى درجة نادرة وعليا من الصفاء، وذلك بغضِّ النظر عن أي مؤثر خارجي، بل تنتج عن حساسية متأهبة تنبُع من الداخل. وهذه اللحظات لا يمكن تفسيرها إلا من حيث الفيزيولوجيا وحدها. وتبقى مثل هذه اللحظات محفورة

54. |Mnemonics: الكلمات أو الجمل التي يقصد منها سهولة تذكر شيء ما، كجمع حروف الزيادة في العربية في كلمة "سألتمونيها"، أو جمع أوتاد وفواصل الشعر العربي في جملة "لم أرَ على ظهر جبل سمكة"، الخ.|

بثبات في الذاكرة، وتحافظ على نفسها وفرديتها بالكامل. لا نستطيع أن نحدد لها سبباً، ولا أن نفسر لماذا هي التي نتذكرها على نحو خاص من بين آلاف اللحظات الأخرى. بل إنها تبدو لنا مسألة صدفة، مثلَ العينات الأحفورية المنفردة التي تكون محفوظة في طبقات الصخور، هي منفردة ولكن تعبر عن فصيلة كاملة منقرضة. أو عندما نفتح كتاباً، فنجد حشرة مسحوقة بالصدفة بين الأوراق. على أي حال، الذكريات من هذا النوع دائماً ممتعة وسعيدة.

(26)

يحصل أحياناً، ودونما أي سبب معين، أن تعود مشاهدُ قديمة منسية إلى الذاكرة. وكثيراً ما يكون سبب ذلك رائحةٌ بالكاد نلحظها، والتي رافقت تلك المشاهد، وقد عادت الآن تماماً كما كانت وقت حدوثها. لأنه من المعروف جيداً أن حاسة الشم فعالة جداً في إيقاظ الذكريات، وقطار أفكارنا لا يحتاج سوى دفعةٍ صغيرة لينطلق على سكته. ولعلي أقول على ذكر ذلك أن حاسة البصر مرتبطة بالفهم[55]، وأن حاسة السمع مرتبط بالعقل[56] وكما نرى في حالتنا، يرتبط الشم بالذاكرة. اللمس والتذوق أكثرُ مادية ويعتمدان على الاحتكاك، وليس لهما جانب مثالي.

لا بد أيضاً من استيعاب مسألة خاصة بتشعبات الذاكرة، وهي أن حالة خفيفة من السُكر كثيراً ما تحسن من تذُّكرنا للأوقات الماضية وأحداثها، إلى درجة أننا نتذكر كل الظروف المرتبطة بها بصفاء كبير لا

---

.55 Wierfache Wurzel sec. 21.

.56 *Parerga* vol. ii, sec. 311.

يمكن الوصول إليه في حالة الصحو. ولكن من جهة أخرى، فإن ذكريات المرء عن أقواله وأفعاله أثناء السُكْر غالباً ما تكون غير دقيقة، بل إذا كان الإنسان سكرانَ فعلاً فقد ينسى الموضوع برمته. يمكننا أن نقول إذاً إنه بينما يُحسِّنُ السُّكر من ذاكرة الأشياء التي مرت في الماضي، فهو يُضعِفُ ذاكرة الأشياء التي تحصلُ في الحاضر.

(27)

يحتاج الرجال إلى نوع من النشاط الخارجي، لأنهم غير فاعلين في الداخل. وعلى نحو معاكس، إن كانوا فاعلين في الداخل فهم لا يرغبون بأن يُستجرّوا إلى خارج أنفسهم، فهذا يزعج أفكارهم ويعيقها بطريقة كثيراً ما تكون مدمرةً بالنسبة إليهم.

(28)

لا يفاجئني أن كثيراً من الناس يشعرون بالضجر عنما يكونون وحيدين، فهم لا يستطيعون الضحك وحدهم، بل إن مجرد فكرة الضحك في العزلة تبدو شنيعة لهم.

هل ينبغي علينا إذاً أن نعتبر الضحك بمثابة رسالة للآخرين، مجرد إشارة؟ مثل الكلمة؟ إن ما يمنع الناس من الضحك عندما يكونون وحيدين ليس إلا نقصاً في المخيلة، «لا مبالاة وبلادةٌ في عقولهم» كما يقول ثيوفرستوس[57]: (باليونان isthaesia kai bradutes

57. [Theophrastus (371-287 ق.م) فيلسوف يوناني خلفَ أرسطو في المدرسة المشائية وترأسها 36 عاماً كانت فترة ازدهار لها، أهمُ كتبه أطروحتان كبيرتان تُعتبران أهم ما قدم في علم النبات في العالم القديم.]

(psuchaes)[58]. الحيواناتُ الأدنى لا تضحك أبداً، لا وحدها ولا مع رفاقها.

في إحدى المرات وجدَ أحد هؤلاء (الذين لا يضحكون الضحك وحدهم) «**مايسون**»[59] كاره الإنسانية « Misanthropist» يجلس وحده ويضحك. **علام تضحك؟** قال سائلاً إياه: **لا يوجد أحدٌ معك.** **فأجابه « مايسون »: هذا بالضبط سبب ضحكي.**

(29)

تعابير اليد الطبيعية، كتلك التي ترافق الكلام الحماسي، لغةٌ بحد ذاتها، بل إنها حتى أكثرُ انتشاراً من لغة الكلام – أقصد: لأنها منفصلة عن الكلمات ومتشابهة في كل الأمم. من الصحيح أن استخدامها يزداد كلما كانت الأمة أكثر مرحاً، وأنه في حالات خاصة، لدى الإيطاليين مثلاً، ترافقها حركات معينة وخاصة طبقاً للأعراف، وبالتالي ليست أكثر من مسألة محلية.

ولكن في الاستعمال العالمي لها، نجدُ في هذه الإيماءات بعضَ التجانس مع المنطق والقواعد، ذلكَ من حيثُ إنها تتعلق بشكل الحديث بدلاً من أن تتعلق بموضوع الحديث. ولكنها من جهة أخرى تتميز عن المنطق والقواعد في أنها ليست ذات معنى فكري وحسب، بل هي ذات معنى أخلاقي أيضاً. بكلمات أخرى: هي تعكسُ تحركاتِ الإرادة. وبالتالي ترافقُ الحديث كما يرافق خطٌّ «القرار» الجهيرُ اللحنَ جاعلاً

---

58. Characters, c. 27.

59. [Myson تعدّهُ بعض المصادر أحد حكماء اليونان السبعة، وعاش في القرن السادس قبل الميلاد.]

تأثيره أقوى.

في الحوار، تعتمد الإيماءات على الشكل الذي يطرح به الحديث، والأكثر إثارةً للاهتمام هو الطبيعة المطلقة للإيماءة المعينة التي تتكرر كلما تكرر شكلُ الحديث، مهما تنوعت مادته وبالتالي موضوعه. فإذا صادف أن رأيتُ – من نافذتي مثلاً – شخصين يخوضان حديثاً محتدماً دون أن أفهم كلمة مما يقولانه، فإنني أستطيع، على الرغم من ذلك، أن أفهم الطبيعة العامة للحديث على نحو ممتاز. أقصدُ نوعَ الشيء الذي يتحدثان عنه والشكل الذي يتخذه. وأستطيعُ أن أميز دون خطأ متى يكونُ المتحدث يجادلُ في شيء ما ويقدم أسبابه، ومتى يحدُّ من تشديده على تلك الأسباب في النقاش، ومن ثم متى يبني قضيته عليها ليصل إلى مراده. أو أميزُ أنه يسردُ تجاربه، ويصفَ كم تأذى ويثبتُ ذلك، ومتى يدينُ المعتدين بالحماقة والعند. أو أستطيع أن أرى متى يتحدثُ عن خطة حسنة وضعها ونفذها بشكل ناجح، أو لربما أخفق لأن الحظ كان ضده. وأراه بعدها يعترفُ بأنه ضائعٌ تماماً لا يعرف ما ينبغي فعله، أو أنه كان سريعاً في رؤية الأفخاخ المنصوبة من أجله، وأنه – عن طريق الإصرار على حقه، أو عبر استخدام بعض القوة – نجح في إحباط خصومه ومعاقبتهم.، وهلم جرا. ثمة مئات الحالات المشابهة.

ولكن ما أحصلُ عليه من الإيماءات وحدها هو فكرة مجردة عن التوجه الجوهري لما يقال، سواء كان فكرياً أم أخلاقياً. إنه الزبدة، المادةُ الحقيقية للحديث، وهذا يبقى متطابقاً مهما كان الذي دفع بالحديث إلى بدايته، ومهما كان محور الحديث. فهو مرتبطٌ بتنوع المواضيع كما يرتبط المفهوم المجرد بالأشياء المفردة التي يعبرُ عنها.

كما قلت، ما هو الأكثر إثارة للاهتمام والأكثر إمتاعاً في المسألة هو ثبات الحركة وطبيعتها المطلقة في التعبير عن الظروف نفسها، حتى لو كان ذلك من قبل بشر ذوي أمزجة مختلفة جداً. وبذلك تصبح الحركات تماماً ككلمات اللغة، متطابقة لدى الجميع، ولا تخضع إلا لتعديلات طفيفة تتعلق باللهجة أو حتى بالتعليم. ولكن ليس ثمة شك في أن هذه الحركات ليست نتيجة عُرفٍ أو اتفاق، بل هي أصيلة وطبيعية – لغة حقيقية مصدرها من الطبيعة، وتثبتت لربما، عبر التقليد وتأثير العادات.

من المعروف جيداً أن جزءاً من واجب الممثل أن يدرس الإيماءات بحرص، والأمر نفسه كذلك إلى حد أقل عند من يمارسون الخطابة. هذه الدراسة يجب أن تتضمن بشكل رئيسي مراقبة الآخرين وتقليد حركاتهم، لأنه لا قواعدَ مجردة ثابتة في هذه المسألة، باستثناء بعض المبادئ الجوهرية، مثلا – على سبيل المثال لا الحصر – أن الحركة لا تتلو الكلمة، بل تأتي قبلها فوراً، وكأنها تعلن عن اقتراب الكلمة جاذبةً انتباه المستمع.

الإنجليزيون يحملون كراهية خاصة للإيماءات، ويعتبرونها شيئاً فظاً وقليل الاحترام. إن هذا يبدو لي نوعا من الحقد السخيف من جانبهم، وناتجاً عن لياقتهم العامة المفرطة. إذْ إن أمامنا هنا لغة مَنَحتها الطبيعةُ للجميع، ويفهمها الجميع. وأن نستغني عنها ونمنعها من دون أي سبب وجيه سوى أنها تعارض ذلك الشيء المُفتخر به جداً: الرجولة المحترمة «gentlemanly»... هو فعلٌ يستحقُّ الكثير من المساءلة والشك.

# عن التعليم

يقالُ إن الفكر البشري مكوّنٌ بحيث تنشأ الأفكار العامة فيه عبر التجريد من الملاحظات الخاصة، وعلى ذلك فهي تأتي بعدها من حيث الزمن. إن كان هذا هو ما يحصل فعلاً، كما يحصل في حالة الرجل الذي يضطر للاعتماد حصرياً على تجربته كي يتعلم – ولا يملك أستاذاً ولا كتاباً – فإن مثل هذا الرجل يعلم جيداً أيّ ملاحظاته المعينة تنتمي إلى – و تمثل أياً – من أفكاره العامة. وعنده اطلاع تام على طرفي تجربته، وبالتالي يعاملُ كل شيء يمرُّ به من وجهة نظر صحيحة. يمكننا أن نسمي ذلك الطريقة الطبيعية للتعليم.

على نحوٍ معاكس، فإن الطريقة الصنعية هي الاستماع إلى أقوال الآخرين، والتعلمُ والقراءة، وبذلك تحشو رأسك بالكثير من الأفكار العامة قبل أن يكون عندك اطلاع مطوّل على العالم كما هو، وكما يمكنك أن تراه بنفسك. سيقالُ لك إن الملاحظات المجردة المعينة، التي تشكل هذه الأفكار العامة، سوف تتبدى لك لاحقاً في تجربتك، ولكن حتى يحصلَ ذلك، فعليك أن تطبق أفكارك العامة بشكل خطأ، فتحكم على الناس والأشياء من وجهة نظر خطأ، وتراهم بطريقة خطأ، وتعاملهم بالطريقة الخطأ. وهكذا يفسدُ التعليمُ العقل.

هذا يفسر لماذا نقع دوماً في أننا، وبعد وقت طويل من التعلم والقراءة، ندخلُ العالم في ريعان الشباب وفينا جهل ساذج بطبيعة الأشياء من جهة (ولدينا أفكار خاطئة عنها من جهة أخرى) بحيثُ يعاني سلوكنا في لحظة ما من قلق عصبي، وفي أخرى من ثقة خاطئة. وسبب ذلك ببساطة هو أن عقلنا ممتلئ بأفكار عامة نحاول الآن أن نستخرج بعض الفائدة منها، ولكننا نادراً ما نطبق ذلك على النحو الصحيح. هذا نتيجة التوجه المتعارض تماماً مع التطور الطبيعي للعقل: فنحصلُ على الأفكار العامة أولاً، والملاحظات الخصوصية ثانياً، وهذا يضع العربة أمام الحصان. بدلاً من تطوير قدرات الطفل الإدراكية، وتعليمه كيف يحكم ويفكر بنفسه، فإن المعلم يستخدم كل طاقاته لملء رأسه بأفكار جاهزة مستقاة من أناس آخرين. إن وجهات النظر الخاطئة هذه نحو الحياة - والتي تنبع من التطبيق الفاسد للأفكار العامة - ينبغي تصحيحها لاحقاً عبر سنوات طويلة من التجارب. ومن النادر أن تتصحح بشكل كامل. ولذلك قلما تجد رجال العلم مهووسين بالمنطق الشائع، في حين نجده قوياً لدى الناس الذين لم يحصلوا على تعليم إطلاقاً.

يمكن تعريف الحصول على معرفة عن العالم بأنه هدف كل التعليم، واستناداً إلى ما قُلت فإن العناية الخاصة يجب أن تولى للبدء في تحصيل هذه المعرفة من الجانب الصحيح. ويعني هذا بشكل عام، كما وضحت، أن الملاحظة الدقيقة لشيء ما ينبغي أن تسبق الفكرة العامة عنه. وعلاوة على ذلك، فإن الأفكار الضيقة والمحدودة يجب أن تأتي قبل الأفكار ذات المجال الواسع. وهذا يعني بالتالي أن النظام التعليمي ككل يجب أن

يتَّبِعَ الخطوات التي تمر بها الأفكار نفسها في طريقها إلى التشكّل. ولكن عندما يتم تجاهل أو تجاوز أي من هذه الخطوات، فإن التعليم يكون ناقصاً والأفكارُ الناتجة عنه فاسدة، وأخيراً، تنشأ بسبب ذلك صورةٌ مشوهة عن العالم متميزةٌ لدى كل فرد بنفسه – وهي صورة يعتنقها الكل تقريباً في فترة ما، والكثير من الرجال يعتنقونها طوال حياتهم. لا أحد يستطيع أن ينظر إلى عقله الخاص من دون أن ينتبه إلى أن الأمر تطلب منه الوصول إلى عمر ناضج جداً – وفي بعض الحالات، في الوقت الأقل توقعاً – حتى يصلَ إلى فهم سليم أو واضح للكثير من مسائل الحياة، والتي لم تكن في الواقع معقدة كثيراً أو شديدة الصعوبة. لأنها كانت حتى ذلك الحين نقاطاً في معرفته عن العالم لا تزال مبهمة، وذلك بسبب تجاوزه درساً معيناً في تلك الأيام الأولى من التعليم، أياً كان نوع هذا التعليم: سواء أكان صنعياً أم تقليدياً، أو من النوع الطبيعي المبني على التجربة الفردية.

بناءً على ذلك، علينا محاولة إيجاد المسار الطبيعي الدقيق للمعرفة، بحيث يسير التعليم منهجياً عبر الالتزام به، وبحيث يتعرف الأطفال على طرائق عمل العالم، من دون أن تدخل أفكار خطأ في رؤوسهم، فهذه كثيراً ما يستحيل إخراجها. ولو كنا نريد أن نتبنى هذه الخطة، فيتوجّبُ إيلاء عناية خاصة لمنع الأطفال من استخدام كلمات لا يفقهون معانيها واستخداماتها على نحو دقيق. الميلُ القاتلُ للقبول بتعلم الكلمات بدلاً من محاولة فهم الأشياء –حفظُ العبارات عن ظهر قلب حتى تكون ملاذاً في وقت الحاجة – هي مسألة موجودة – من حيث الجوهر – حتى في الأطفال، ويستمر هذا الميل حتى البلوغ، مما يجعل معرفةَ الكثير من

الأشخاص لا تعدو كونها تعداداً للمفردات.

ولكن السعي الرئيس ينبغي أن يكون دوماً نحو السماح للملاحظات المعينة بأن تتحول إلى أفكار عامة وليس العكس، كما هي الحال المؤسفة عادةً: كما لو أن الطفل ينبغي أن يولد واقفاً على رجليه أولاً، أو أن الشعر ينبغي ان يبدأ بالقافية! إن الطريقة المعتادة هي طبع الأفكار والآراء - بالمعنى القاسي للكلمة، **التحيز** - في دماغ الطفل، وكلُّ ذلك من قبل أن يحصلَ إلا على القليل جداً من الملاحظات. ولذلك فإنه لاحقاً يرى العالم ويحصّلُ تجربته فيه عبرَ وسيطٍ من تلك الأفكار الجاهزة، بدلاً من أن يسمح لأفكاره أن تتشكل لديه عبر تجربته الخاصة في الحياة، كما ينبغي أن يحصل.

عندما ينظر الرجل بنفسه إلى العالم فإنه يرى أشياء كثيرة جداً، ويراها من جوانب عديدة، ولكن هذه الطريقة من التعلم أطول بكثير، وليست بسرعة الطريقة التي تستعمل الأفكار المجردة وتقدم تعميمات سريعة عن كل شيء. وبناء على ذلك، سوف تنطلب التجربة وقتاً طويلاً من أجل تصحيح الأفكار المسبقة، أو ربما لا تصل إلى هدفها أبداً. لأنه: ما إن يجد الرجل أن طبيعة الأشياء تخالف الأفكار العامة التي شكَّلها، حتى يبدأ برفض الأدلة بصفتها متحيزة ومن جانب واحد، بل إنه سوف يغلق عينيه عنها بالكامل ، ويُنكِرُ أن فيها أي تناقض على الإطلاق مع قناعاته المسبقة، وذلك كي يحافظ على أفكاره من الأذى. لذا يَحملُ الكثيرُ من الرجال عبء الخطأ طوال حياتهم - من نزوات وانفعالات وخيالات وتحيزات - والتي تصبح في آخر المطاف أفكاراً ثابتة. وواقع الحال أنه لم يجرب يوماً أن يشكّلَ أفكاره الجوهرية بنفسه عبر تجاربه

الخاصة في الحياة، وعن طريق نظرته الخاصة إلى العالم، لأنه استحوذ على أفكاره جاهزة من أناس آخرين. وهذا ما يجعله – كما يجعل الكثيرين الكثيرين! – سطحياً وضحلاً.

بدلاً من طريقة التلقين هذه، يجب تعليم الأطفال بناءً على المجرى الطبيعي للأمور. لا ينبغي لفكرة أن تتثبت في عقل طفل بحيث تكون مختلفة عما يراه الطفل بنفسه، أو في أقل الأحوال ينبغي أن يتم إثباتها عن طريق رؤيته نفسها، وستكون نتيجة ذلك أن أفكار الطفل، ولو كانت قليلة، ستكون راسخة ودقيقة. سيتعلم كيف يقيس الأمور بمعاييره بدلاً من معايير الآخرين، وبذلك ينجو من ألف خيال وتحيزٍ مريض، ولا يحتاج بعدها إلى الخلاص منها عبر الدروس التي سوف يتلقاها في مدرسة الحياة. وسيحصل الطفل بهذه الطريقة على عقلٍ معتاد على الرؤية الصافية والمعرفة الثاقبة، وسيستعمل قدرته على المحاكمة ويقدر الأمور دون انحياز.

وعلى نحو عام، لا يصح أن يشكل الأطفال فكرتهم عن الحياة من النسخة قبل أن يتعلموها من الأصل، مهما كان المجال الذي يتوجه إليه انتباههم. ولذلك، فبدلاً من الاستعجال لوضع الكتب، والكتب وحدها، بين أيديهم، دعوهم يتعرفون تدريجياً على الأشياء: عبر الظروف الحقيقية للحياة البشرية. وعلاوة على كل ذلك، فلتُتَّخذ العنايةُ الكافية لإيصالهم إلى وجهة نظر موضوعية وواضحة عن العالم كما هو، فنعلمهم أن يشتقوا أفكارهم دوماً بشكل مباشر من الحياة الحقيقية، وأن يشكلوها بالتوافق معها، وليس أن يأخذوها من مصادر أخرى مثل الكتب والحكايات الخرافية، أو ما يقوله الناس، ويطبقوها جاهزةً على

الحياة الحقيقية. لأن هذا سيعني أن رؤوسهم ممتلئة بالأفكار الخاطئة، وإما سيبصرون الأمور من وجهة نظر خاطئة أو سيحاولون عبثاً أن يعيدوا تشكيل العالم ليلائم رؤيتهم، وبذلك يسلكون في طرق فاسدة. وهذا سيحصلُ سواء أكانوا ينشئون نظريات عن الحياة أم ينهمكون في الشغل العملي. من المذهل كمية الأذى الذي تفعله بذور الخطأ المزروعة مبكراً في العقول، والتي سوف تحمل لاحقاً محصولاً من التحيّز. لأن الدروس اللاحقة، التي سوف يتعلمونها من الحياة الحقيقية في العالم سوف تكون مكرسةً بُمعظمها لاقتلاع هذه البذور. إن (نسيان الشر) هي الإجابة التي يقدمها «أنتيستنيس»[60] – حسب رواية «ديوجينوس لايرتوس». عندما سئل: أيُّ فرعٍ من المعرفة هو الضروري. ونستطيع أن نرى ما الذي كان يقصده.

لا يجب أن يتلقى طفل تحت الخامسة عشرة تعليماً في مواضيع قد تتسبب في أخطاء كبرى، مثل الفلسفة والدين أو أي فرع آخر من فروع المعرفة يتطلبُ وجهة نظر واسعة، لأن الأفكار الخطأ المزروعة في الصغر نادراً ما يمكن اقتلاعها، ومن بين كل القدرات الإدراكية، فإن المحاكمة هي آخر ما يصل إلى النضج. ينبغي للطفل أن يولي اهتمامه للمسائل التي لا خطأ فيها أصلاً، مثل الرياضيات، أو للمسائل التي لا خطر في الخطأ فيها، مثل اللغة والعلوم الطبيعية والتاريخ وهلم جرا. وعلى نحو عام، فإن فروع المعرفة التي ينبغي دراستها في أي فترة من الحياة يجب أن تكون مساوية لقدرات العقل في ذلك العمر. الطفولة والشباب يشكلان فترة جمع المواد من أجل التعرف العميق على الأشياء المفردة

60. [Antisthenes: فيلسوف يوناني من تلامذة سقراط]

والمحددة، وجمع المعلومات عنها. وفي تلك السنوات، من المبكر تشكيل آراء على مستويات واسعة، وينبغي تأجيل الشروح النهائية إلى وقت متأخر أكثر. إن قدرة المحاكمة – التي لا يمكن أن تصبح فعالة دون تجربة حقيقية – يجب تركها بلا تدخل. ويجب الاحتياط لئلا نسيطر مسبقاً على أفعالها عبر غرس التحيّزات، والتي سوف تشلّها إلى الأبد.

من جهة أخرى، يجب استهلاك الذاكرة على نحو خاص في الشباب، لأنها في ذلك العمر في قمة قوتها وعنادها. ولكن في أثناء اختيار الأشياء التي يجب أن تختزن في الذاكرة علينا أن نمارس أقصى أنواع الاهتمام والتبصر، فالدروس التي تؤخذ في الصغر لا تُنسى. يجب إذاً الاعتناء بهذه التربة الخصبة بحيث تؤتي أكبر محصول من الثمار. لو أنك تأملت كم هم متجذرون في ذاكرتك أولئك الأشخاص الذين عرفتهم في السنوات الاثنتي عشرة الأولى من حياتك، وكم هو راسخٌ الانطباع الذي تركوه داخلك في هذه السنوات، وكم أنك تتذكر بدقة شديدة معظم ما حصل معك حينها – وأكثره قيلَ لك أو علموك إياه – فسيتبين لك أن الطبيعي هو اعتبارُ تأهب العقل وعناده في هذه المرحلة هو الأرضيةُ التأسيسيةُ للتعليم. يمكن إنجاز ذلك عبر التزام صارم بالمنهجية، وعبر تنظيم ممنهج للانطباعات التي يتلقاها العقل.

ولكن سنوات الشباب التي يحصل عليها الإنسان قصيرة، والذاكرة محدودة بحدود ضيقة بشكل عام، وأما ذاكرة الفرد فهي محدودة أكثر بكثير. وبما أن الحال كذلك، تبقى الضرورةُ القصوى هي ملء الذاكرة بما هو جوهري ومفيد في أي فرع من المعرفة، مع استثناء كل شيء آخر. وأما تحديد ما هو جوهري ومفيد فيجب أن يقع على عاتق العقول الفذّة

في كل مجال من الفكر، ويجب أن يضعوا اختياراتهم بعد تدبرٍ فائق النضج، ويكونَ الناتج ثابتاً ومحدداً. ويتخذ مثل هذا القرار عبر غربلة الأشياء التي من الضروري والمهم أن يعرفها الإنسان على نحو عام، ومن ثم الضرورية منها والمهمة للفرد على نحوٍ خاص في مجال معين من العمل أو البحث. والمعرفة من النوع الأول ينبغي أن تكون مصنفة، بطريقة موسوعية وفي دوراتٍ متدرجة، ومعدلة لتلائم درجة الثقافة العامة المطلوبة من الفرد في ظروفه. والبداية تكون بدورة تنحصر في المستلزمات الضرورية للتعليم الأولي، وتمتد بعدها نحو الأعلى باتجاه المجالات المتضمنة في كل فرع من الفكر الفلسفي. وأما تنظيم النوع الثاني من المعرفة فيجب أن يُترك للذين أظهروا إتقاناً حقيقياً في الفروع المتعددة التي تنقسم إليها هذه المعرفة، ويوفر النظام ككل قاعدة مفصّلة، أو متناً، للتعليم الفكري، ويجب بالطبع مراجعته كل عشر سنوات. إن تدبيراً من هذا النوع الذي نصفهُ سوفَ يستعملُ قدرة الذاكرة الشابة على النحو الأفضل، ويقدم أفضل المواد الفعالة لَمَلَكَةِ المحاكمة العقلية عندما تظهر لاحقاً.

بوسعنا أن نقول عن معرفة إنسان أنها ناضجة – بكلمات أخرى، أنها وصلت إلى أقصى درجات الكمال التي يستطيع هو كفرد الوصول إليها – عندما ينشأ تواصل دقيق بين كامل الأفكار المجردة من جهة والأشياء التي يلاحظها بنفسه من جهة أخرى. يعني هذا أن كلاً من أفكاره المجردة قائمةٌ – على نحو مباشر أو غير مباشر – على أساس من الملاحظة، وهي وحدها التي تمنح هذه الأفكار أي قيمة حقيقية. ويعني ذلك أيضاً أنه قادرٌ على أن يضع أي ملاحظةٍ يرصدها في ضوء الفكرة

المجردة الصحيحة التي تنتمي إليها. النضجُ شيءٌ يأتي بالخبرة وحدها، ولذلك يتطلب وقتاً. إن المعرفة التي نكوِّنها من ملاحظاتنا الخاصة تكون في العادة مميزة عن تلك التي نحصّلها عن طريق وسيط من الأفكار المجردة، فالأولى تأتي إلينا بشكل طبيعي، والثانية عبر أناس يخبروننا، وعبر عملية التلقين التي نتلقاها سواء أكانت جيدة أم سيئة. نتيجة ذلك هي أننا نادراً ما نمتلك في شبابنا توافقاً أو تواصلاً بين أفكارنا المجردة – والتي هي ليست إلا عبارات في العقل – وبين المعرفة الحقيقية التي حصلنا عليها نتيجة ملاحظاتنا الخاصة. ولا نبدأ إلا لاحقاً بتطوير مقاربة تدريجية بين هذين النوعين من المعرفة، يصاحبها تصحيح متبادل للأخطاء، فالمعرفة لا تكون ناضجة حتى يكتمل هذا التحالف. إن نضجَ المعرفة أو إتمامها شيء مستقل إلى حد بعيد عن أي نوع آخر من الاكتمال، والذي قد يكون من نوع عالٍ أو متدنٍ – أقصد الاكتمال الذي قد تصل إليه قدرات المرء الفكرية الخاصة، وهذا لا يقاس بأي نوع من التبادل بين نوعي المعرفة، بل بدرجة الإتقان التي يصل إليها كل نوع.

بالنسبة إلى الإنسان العملي، فإن أكثر ما يحتاج إليه هو الحصول على معرفة دقيقة وعميقة لطرائق عمل العالم. ولكن هذا، وعلى الرغم من أنه أكثر ما يُحتاج إليه، هو أيضاً أشد أنواع الدراسة إتعاباً، فقد يصل الإنسان إلى عمر كبير من دون أن ينجز مهمته، بينما يتقنُ في مجال العلوم الحقائق الأكثر أهمية في شبابه. وفي أثناء الحصول على هذه الحقائق يكون مبتدئاً، أي في مرحلة الطفولة والشباب، وفي أثنائها تمثُل أمامه الدروس الأولى الأقسى، ولكن كثيراً ما يحصل أن تتبقى كميةٌ كبيرة مما ينبغي تعلُّمه حتى في السنوات المتأخرة من العمر.

الدراسة صعبة بحد ذاتها، ولكن الصعوبة تضاعفها الروايات، **التي تمثّل – في واقع الأمر** – حالة الأشياء في الحياة والعالم على غير ما هي فعلاً. إن الشباب ساذج، ويتقبل وجهات النظر الروائية هذه حول الحياة، وتصبح في ما بعد جزءاً لا يتجزأ من طريقة عقله للأمور، بحيث يصبح لدينا – بدلاً من حالة من الجهل السلبي – خطأٌ إيجابي: نسيجٌ كاملٌ من الأفكار الخاطئة التي باتت موجودة أصلاً، وتقوم هذه الأفكار في وقت لاحق بإفساد التعليم النابع من التجربة، وتضع بنياناً فاسداً للدروس التي يقدمها. وإن لم يكن لدى الشاب، قبل ذلك أيُّ نورٍ يدلُّه، فسوف يضلله طيفٌ متوهج[61]، وهذا أيضاً أكثر شيوعاً في حالة الفتيات. حيثُ تُفرض عليهنَّ وجهات نظر فاسدة عبر قراءة الروايات، وتنشأُ عندهن في الوقت نفسه توقعاتٌ لا يمكن تحقيقها. ويكون هذا وبالاً بشكل عام على حياتهن ككل. ومن هذا المنطلق، فإن الذين لم يتوفر لديهم الوقت أو الفرصة لقراءة الروايات في شبابهم – أولئك الذين يشتغلون في عمل يدوي وما شابه – يتمتعون بأفضلية مؤكدة. هنالك قلة من الروايات التي لا يصح في حقها هذا التقريع، بل إن لها تأثيراً مضاداً للتأثير السيء. فبادئ ذي بدء، نستطيع أن نقدم مثالاً رواية **Gil Blas**، والأعمال الأخرى لـ**Le Sage** (أو بالأحرى النسخ الاسبانية الأصلية منها)، وأيضاً **The Vicar of Wakefield**، وإلى حد ما روايات السير **Walter Scott**. ويمكن اعتبار **«دون كيشوته»** تجسيداً ساخراً لوجهات النظر والتوقعات الفاسدة التي تحدَّثتُ عنها.

61. [Will-o'-the-wisp: في الثقافة الأوروبية: كائن خيالي من لهب يضللُ المسافرين، أو يخدعهم للبحث عن كنز لا يوجد]

# عن المرأة

إن **قصيدة شيلر**[62] في تكريم المرأة، Wurde der Frauen، تنمُّ عن الكثير من التفكير الدقيق، وتقدِّمُ نفسها للقراءة عبر أستخدام الطباق والتباين، ولكنها إذا ما قيست بالمديح الحقيقي الذي تستحقه النساء، فإنها في رأيي أدنى من هذه الكلمات القليلة من شعرِ جوي[63]: **دون المرأة، تكون بداية حياتنا عاجزة، ووسطها خالياً من المتعة، ونهايتها من العزاء**[64]. والفكرة نفسها تجد تعبيراً أكثر بلاغة لدى بايرون في مسرحيته **«ساراندابولوس»**:

*« البداية الأولى،*

*لحياة الإنسان لا بد ستنبع من ثدي امرأة،*

*وكلماتك الأولى تتعلمها من شفاهها،*

*ودموعك الأولى تمسحها هي،*

---

62. [Friedrich Schiller فردرش شيلر (1759-1805) من أهم الشعراء الألمان الكلاسيكيين. كان فيلسوفاً وطبيباً إلى جانب كونه شاعراً وكاتباً للمسرح. كان صديقاً لغوته وعملا سوياً على بعض القصائد.]

63. [Victor-Joseph Étienne 'فيكتور جوزيف إتان' وعرف باسم de Jouy (1764-1846) شاعر فرنسي.]

64. Sans les femmes, le commencement de notre vie seroit privi de secours, le milieu de plaisirs, et la fin de consolation."

*وأنفاسك الأخيرة،*

*غالباً ما تلفظها في مسمع امرأة،*

*عندما يتملص الرجال من واجبهم المقيت،*

*في العناية بالساعة الأخيرة من عمر الرجل الذي قَادَهم».*

يشير هذان المقطعان إلى المنطلق الصحيح لقيمة المرأة.

ليس عليك إلا النظر إلى شكل المرأة حتى ترى أنها غير مكوَّنة لتدخل العمل، سواء العمل العقلي أو الجسدي. فهي تدفع دَين الحياة لا عبر ما تفعله، بل عبر ما تعانيه، عبر آلام الولادة والعناية بالأطفال، وعبر الخضوع لزوجها الذي يجب أن تكون رفيقةً صبوراً ومبهجةً له. إن أكثر الآلام والأفراح حدةً ليست لها، ولا يُطلب منها أن تُظهِرَ قدراً كبيراً من القوة. يجب أن يكون تيار حياتها أكثر لطفاً، ومسالمة، وسخفاً من الرجل، من دون أن يكون أقل سعادةً أو أكثر بالضرورة.

إن النساء مجهزات ليكنَّ الممرضات والمعلمات في طفولتنا المبكرة لأنهن بحد ذاتهن طفوليات، وطائشات وقصيرات النظر. بكلمة: هنّ أطفالٌ كبارٌ طوال حياتهن: حالةٌ متوسطة بين الطفل والرجل البالغ، الذي هو إنسان بالمعنى الحقيقي للكلمة. انظر كيف تداعب بنتٌ طفلاً أياماً متتالية، وترقصُ معه وتغني له، وفكِّر فيما سيفعله رجلٌ – حتى لو كان يملك أفضل السجايا الممكنة في العالم – لو كان مكانها.

يبدو أن الطبيعة عندما أنتجت الفتيات الصغار كان في بالها ما يدعى - في لغة الدراما - التأثير المسرحي أو الشعوري، فهي تُغدق عليهن في

سنواتهن المبكرة ثروةً من الجمال وتمنحن سحرَه بكرم، وذلك على حساب كل المتبقى من حياتهن. بحيث يتمكنَّ في تلك السنوات من الاستحواذ على مخيلة رجلٍ ما بحيثُ يسارعُ إلى تعهدهنَ بالعناية المشرّفة، بشكل ما أو آخر، ما دمنَ على قيد الحياة – وهي خطوةٌ لن يبدو لها أي مبرر كافٍ لو أن العقل وحده يقود أفكاره. وبالتالي، فإن الطبيعة جهَّزت المرأة، كما تجهِّزُ كل المخلوقات، بالأسلحة والأدوات للدفاع عن وجودها، ويدوم ذلك بالقدر المعين من الزمن الذي تلزمها فيه هذه الأدوات. وفي هذه الحالة، كما في غيرها، تتعامل الطبيعة باقتصادها المعتاد، فكما أن النملة الأنثى تخسر جناحيها بعد الإلقاح – واللذين يصبحان بلا فائدة، بل خطيرين على إتمام التكاثر – فكذلك تخسرُ المرأة جمالها بعد أن تنجب طفلاً أو طفلين، وذلك على الأغلب لأسبابٍ مشابهة فعلاً.

ولذلك نجد أن الفتيات الصغيرات ينظرنَ، في قرارة قلوبهن، إلى الأعمال المنزلية على أنها شيءٌ ثانوي من حيث الأهمية، بل مجرد لُعبة. والشغل الحقيقي الوحيد الذي يستحوذ حقاً على اهتمامهن الجدي هو الحب، والتملُّك، وكلُّ ما يرتبط بهما – اللباس والرقص وهلم جرا.

كلما زاد نبلُ الشيء وتمامه كلما تأخرَ في الوصول إلى نضجه. يَصلُ الرجلُ إلى نضج طاقاته العقلية وقدراته الفكرية بالكاد قبل عمر الثامنة والعشرين، بينما المرأة في الثامنة عشرة. ولكنهن بسبب ذلك لا يمتلكن سوى قدرة عقلية طفيفة ومحدودة جداً. ولذلك تبقى النساءُ أطفالاً طوال حياتهن، ولا ترينَ شيئاً إلا القريب جداً منهن، ويتعلقنَّ باللحظة الراهنة، وتفضِّلنَ المظاهر على الواقع، وتفضلنَ المسائل السخيفة على

المسائل ذات الأهمية الكبرى. لأنَّ الرجلَ لا يعيش في اللحظة وحدها كما يعيش المتوحشون، وذلك بفضل قدرته العقلية، بل ينظرُ حوله ويضع اعتباراً للماضي والحاضر، وهذا مصدرُ الحكمة، كما هو أيضاً مصدرُ العناية والقلق اللذين يظهران في الكثير من الناس. وإيجابياتُ هذا الموضوع وسلبياته موجودتان لدى المرأة أيضاً، ولكن إلى حدٍ أقل بسبب قدرتها الضعيفة على التفكير العقلاني. ويمكن وصفها في الواقع بأنها قصيرة النظر فكرياً، لأنها على الرغم من امتلاكها فهماً فطرياً لما يحيطُ بها عن قرب، فإن مجال رؤيتها ضيق ولا يصل إلى ما هو بعيد. بحيث يكون للأشياء الغائبة أو الماضية أو القادمة في المستقبل تأثير أقلُّ بكثير على النساء مما لها على الرجال. ولهذا السبب كثيراً ما تميلُ النساء إلى التبذير في المظاهر، ويدفعنَ بميلهنَّ هذا أحياناً إلى ما يقترب من حافة الجنون. في قلوبهن، تعتقدُ النساء أن كسبَ المال شغلُ الرجال، وأن شغلهن إنفاقه – وذلك خلال حياته إن أمكنْ، ولكن بعد موته أيضاً على حد سواء. ويؤكدُ هذا الاعتقاد في عقولهنَّ أن الزوج يسلمهنّ أجره من أجل لوازم المنزل.

مهما كانت سلبيات ذلك كثيرة فهنالك على الأقل أمر واحد يمكن أن يكون إيجابياً فيه: أن المرأة تعيش في الحاضر أكثر من الرجل، وإذا ما كان الحاضر قابلاً للتحمل فهي تستمتعُ به على نحو أكثر شغفاً من الرجل. هذا مصدر ذلك المرح المميز لدى النساء الذي يؤهلها لتسلية الرجل في ساعات الترفيه، ومواساته عندما تدعو الحاجة ويكون مرهقاً تحت ثقل أعبائه.

ليس من السيء أبداً استشارة النساء في الأمور الصعبة والدقيقة، كما

كان الألمان يفعلون في العصور القديمة، لأن طريقتهن في النظر إلى الأشياء مختلفة جداً عن طريقتنا، ويكمن ذلك الاختلاف بشكل رئيسي في أنهنَّ يفضلنَ سلوكَ الطريق الأقصر إلى هدفهن، وعلى نحو عام، يستطعنَ تثبيت عيونهن على ما هو أمامهن. بينما نحنُ، وكقاعدة عامة، نتجاهل ما نراه أمامنا بالضبط لأنهُ ماثلٌ أمام أنوفنا. وفي الحالات الشبيهة نحتاج لمن يُرجعنا إلى نقطة البداية حتى نستعيد النظرة القريبة والبسيطة لما حولنا.

ومرة أخرى النساء بالتأكيد أكثر عمليةً منّا في محاكمتهن: من حيثُ إنهنَّ لا ترينَ في الأشياء أكثر من الموجود فيها، بينما عندما تتحرك عواطفنا، فنحن قابلون لأن نرى الأشياء بشكل مبالغ فيه، أو نتوهَّمَ شيئاً غير موجود.

ويفسرُ ضعفُ قدرتهن العقلانية تعاطفهنَ مع التعساء أكثر مما يفعلُ الرجال، ويعاملنهم بلطف واهتمام. ويفسرُ أيضاً كونهنَّ – بالعكس تماماً من النقطة السابقة – أضعفَ من الرجال في مسألة العدالة، والصدق، والتصرف الأخلاقي. فبالضبط لأن قدراتهن العقلانية ضعيفة تُسيطرُ عليهنَّ الظروف الآنية بقوة، لأن الأمورَ الحاضرة أمامهنّ والملموسة بشكل فطري، والحقيقية على نحو محسوس، تمارسُ كلها عليهنَّ سلطةً بالتضاد مع مبادئ العقل المجردة، أو قواعد السلوك الثابتة، أو الإرادة القوية، أو على نحو أعمّ، اعتبارات الماضي والمستقبل، أو اعتبارات ما هو غائب وبعيد. وبالتالي، فهنَّ يملكن العناصر الأولى والرئيسية لما يصنعُ الشخصية الفاضلة، ولكنهن ناقصاتٌ من حيث الصفات

الثانوية، والتي كثيراً ما تكون أداةً ضرورية في تشكيلها.'[65]

لذلك نجدُ أن العيب الجوهري في الشخصية الأنثوية هي أنها لا تملك حساً بالعدالة. وهذا يعود بشكل جوهرى، كما ذكرنا سابقا، إلى أن المرأة ناقصة من حيث الطاقات العقلانية والتدبُّر، ولكن يمكننا أيضاً تتبعُ سبب ذلك إلى الموقع الذى وضعتها فيه الطبيعة بصفتها الجنس الأضعف. فهن معتمدات، لا على القوة، بل على الصنعة، وعلى ذلك نجد قدرتهنَّ الفطرية على الخداع، ونزعتهن غير القابلة للتغيير لقول ما هو غير حقيقي. فكما أن الأسود مزودة بمخالب وأنياب، والفيلة بأنياب عاجية، والثيران بالقرون، والأخطبوط بسائله الحبري، فكذلك سلَّحت الطبيعةُ المرأة للدفاع عن نفسها وحمايتها بفنون المواربة، وكل القوة التى أعطتها الطبيعة للرجل على هيئة القدرة الجسدية والعقل، أعطتها للمرأة على هذه الهيئة. ولذلك، فإن المواربة فطريةٌ فى المرأة. وتكادُ تكون موحَّدةً في الغبيات منهن والذكيات. واستعمالها عندهن طبيعيٌ فى كل مناسبةٍ كما هو طبيعي للحيوانات أن تستعمل أساليبها الدفاعية عندما تتعرض للهجوم، وعندهنّ شعور بأنهن إذ يفعلن ذلك لا يمارسنَ سوى حقوقهن. وعلى ذلك فإن المرأة الصادقة تماماً والتى لا تقبل المواربة قد تكون استحالة، ولهذا السبب بالضبط يسهل عليهن اكتشاف المواربة عند الآخرين، بحيث من غير الحكمة محاولة استخدام

65. من هذا الجانب من الممكن مقارنتهن بالكائن الذي يملك كبداً ولكنه لا يملك مرارة. دعوني هنا أشير إلى ما قلته في أطروحتي عن أساسات الأخلاق، المقطع 17.

[ في المقطع المذكور من أساسات الأخلاق يشبِّهُ شوبنهاور قدرةَ المرارة على التحكم في إفرازات الكبد بقدرة المبادئ التي نؤمن بها بعمق على التحكم في رغبتنا بسلب حقوق الآخرين وإيذائهم، وذلك على الرغم من اعتباره أن الصياغات التعميمية والمعرفة المجردة من أي نوع كان ليستا السبب أو الأساس الحقيقيين للأخلاق. ولكن، لا يمكن الاستغناء عنهما في مسيرة حياة أخلاقية.]

المواربة ضدهن. ولكن هذا العيب الجوهري الذي ذكرتهُ، مع كل ما يترتبُ عليه، ينشأُ عنه فساد: عدمُ الإيمان والخيانة والجحود، وهلمّ جرا. ترتكبُ النساء الكذب تحت القسم فى المحكمة أكثر من الرجال، بل من الممكن بالفعل أن نتساءل بشكل عام إن كان يصحُّ قبولُ شهادة النساء تحت القسم من الأصل. وبين الفينة والأخرى يصادفُ المرءُ حالات متكررة فى كل مكان: نساءٌ لسنَ معوزاتٍ لأي شيء ولكنهنَّ يسرقن من طاولات المحلات عندما تغيب الأنظارُ عنهن ويهربنَ بما سرقن. لقد أولت الطبيعةُ تكاثر الفصيلة للرجال اليافعين والأقوياء والوسيمين، بحيث لا ينحطُّ العِرق. وتتجسد إرادة الطبيعة الثابتة، وتجد التعبير عن نفسها، في شغف النساء. ليس ثمة قانون أقدم أو أقوى من هذا، عارٌ إذن على الرجل الذى يرتبُ حقوقه ومصالحه بحيث تتعارضُ مع هذا القانون، إذ مهما قال أو فعل، فإن ترتيباته كلها سوف تُسحق بلا رحمة عند أول مناسبة جدية. لأن القاعدة الفطرية التى تحكم سلوك النساء، على الرغم من أنها سرية وغير مصاغة، بل غير واعية في أثناء عملها، هي التالى: **من المبرَّر لنا خداع أولئك الذين يحسبون أنهم قد امتلكوا الفصيلة لأنهم يوفرون لنا عيشنا، نحنُ الأفراد. وبما أن الجيلَ القادم من الفصيلة يأتي عبرنا، فإن بنية الفصيلة وبالتالى مصلحتها قد وضعت بين أيدينا وتحت رعايتنا. وسوف نمارس هذه الرعاية بأمانة.** ولكن النساء لا يملكن معرفةً مجردة لهذا المبدأ الرئيسي، بل هنَّ واعيات له بصفته واقعاً ملموساً فحسب، وليس لديهنَّ طريقة أخرى للتعبير عنه سوى التصرف حين تسنح الفرصة. ومن ثم لا يتعبهن ضميرهن كثيراً كما نتخيل، لأنهن في قرارة قلوبهن واعياتٌ أنّهنَّ عندما يخرقنَ واجبهن تجاه

الفرد، فهن يحققن واجبهن على نحو

أفضل تجاه الفصيلة، والتي هي أكثر أحقيَة بها لا يُقاس.[66]

ولأن النساء موجودات، في آخر المطاف، حصراً من أجل تكاثر الفصيلة، وليس مقدراً لهنَّ أي شيء آخر، فهن يعشن، كقاعدة، من أجل الفصيلة أكثر من أجل الفرد، وتأخذ قلوبهن قضايا الفصيلة على نحو أكثر جدية من قضايا الفرد. يمنح هذا حياتهن ووجودهنَ بأكمله خفةً. إن نزعة شخصيتهن العامة ذات منحى مختلف جوهرياً عن نزعة الرجل، وهذا ما ينتج الشقاق المتكرر كثيراً في الحالة الزوجية، بل هو الوضع الطبيعي.

إن الشعور الطبيعي بين الرجال هو عدم الاكتراث، ولكنه بين النساء في الواقع عداوة. وسبب ذلك هو في الواقع التنافس المهني «odium figulinum» والذي لا يكون في حالة الرجال أبعد من حدود مهنة معينة، ولكنه في حالة النساء يشملُ جنسهنَّ بأسره. لأنهن لا يملكن إلا نوعاً واحداً من العمل. حتى عندما يلتقين في الطريق، تنظرُ النساء إلى بعضهن بعضاً مثلما ينظر الجويلفيون إلى الغيبلنين[67]. ومن الواضح إنه حينما تتعرف امرأتان على بعضهما للمرة الأولى تتصرفان بمزيد من الحذر والمواربة من رجلين في نفس الموقف، ولذلك يكون تبادلُ المديح

---

66. ثمة نقاش أفضل لهذه المسألة في عملي الرئيسي Die Welt als Wille und Vorstellung,vol. ii, ch. 44.

67. [Guelphs and Ghibellines جماعتان "أو حزبان" نشأتا في القرنين الثاني والثالث عشر في إيطاليا بسبب الشقاق الذي حصل بين البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة، حيث الجويلفيون يدعمون البابا، والغيبلنيون يدعمون الامبراطورية، ونشأ عن صراع هذين الجماعتين معارك دامية، وشكَّل تنازعهما جزءاً كبيراً من سياسة الدول الإيطالية، واستمر حتى القرن الخامس عشر.]

بين سيدتين مسألة أكثر سخافة بكثير مما هو عليه بين رجلين. علاوة على ذلك، بينما يحافظ الرجل، كقاعدة، دوماً على قدرٍ معين من الاعتبار والإنسانية عند حديثه مع الآخرين، حتى أولئك الذين هم في موقع أدنى منه، فمن غير المحتمل مشاهدة كمية الفخر والاحتقار اللتين تتصرف على أساسهما سيدة راقية مع سيدة ذات موقع اجتماعي أدنى (لا أعني امرأة تعمل في خدمتها) وذلك بمجرد أن تتكلم معها. قد يكون السبب في ذلك أن فرقَ الموقع – لدى النساء – هو مسألة أكثر شحّاً بكثير من حالتنا. فمع أن مئة اعتبار قد يدخل في ميزان حالتنا، ففي حالتهن لا يوجد إلا اعتبارٌ واحد، وهو: أيُّ الرجال قد حصلن على حظوته، ولربما يكون ذلك سبباً آخر في أنهن أقرب إلى بعضهن بعضاً بكثير من الرجال، وذلك بسبب أحادية وظيفتهن. ويجعلهن هذا يجتهدن في الاهتمام بفرق الموقع الاجتماعي.

وحده الرجل الذي ملأت عقله غمامة الاندفاع الجنسي قد يصف ذلك العرق صغير الحجم وضيق الأكتاف وعريض الخصر وقصير الأرجل بأنه الجنس الجميل. لأن كل جمال ذلك الجنس مرتبط بهذا الدافع. بدلاً من أن تُدعينَ جميلات من الأصح أن تدعى النساء الجنس غير الجميل. فليس عندهنَّ أي حس فعلي أو قابلية حقيقية للموسيقى أو الشعر أو حتى الفن الجميل. ويكون ذلك محضَ خداع عندما يدَّعينه كي يساعدهنّ للحصول على الحظوة. ونتيجة لذلك فهن غير قادرات على اتخاذ أي اهتمام موضوعي بحت في أي شيء، ويبدو لي السبب في ذلك كما يلي: إن الرجل يحاول أن يحصل على إتقان مباشر للأشياء، سواء عبر فهمها أو عبر تطويعها لإرادته. ولكن المرأة دائماً وفي كلِّ مكان

لا تسعى إلا إلى الحصولِ على الإتقان بشكل غير مباشر، أي عن طريق رجل، وأيُّ إتقان مباشر تملكه محصورٌ به. ولذلك فإن من طبيعة المرأة النظر إلى كل شيء كوسيلة وطريقة لهزيمة الرجل. وإذا اهتمتْ بشيء آخر فيكون ذلك من قبيل المحاكاة: مجرد طريقة مُلتفَّةٍ للحصول على أهدافها بالغنج، فتتظاهر بالفنون لاجتذاب الرجل. ولذلك حتى «روسو» قال: **ليس لدى النساء، بشكل عام، حبٌّ لأي فن، وليس لديهن أي معرفة جيدة عن أي صنفٍ منه، وليس لديهن عبقرية.**[68]

لا يخفق من ينظرُ إلى ما هو أعمق من السطح في الوصول إلى الملاحظة نفسها. ليس عليك سوى أن تلحظَ نوع الانتباه الذي تملكهُ النساء في حفلة، أو أوبرا، أو مسرحية: البساطةُ الطفولية التي يتجاذبن فيها أطراف الحديث في أفضل المقاطع من أعظم الروائع. وإذا صحَّ أن **اليونان** كانوا يمنعون النساء من دخول مسارحهم فقد أحسنوا فعلاً، فإنك على الأقل ستستطيع أن تسمع ما يقال على الخشبة. وفي وقتنا هذا، وإلى جانب القول – أو ربما بدلاً عنه – **فلتصمت المرأة في الكنيسة**[69]، فإن من الأهم بكثير القول **فلتصمت المرأة في المسرح**. ومن الممكن وضع ذلك لربما، بحروف كبيرة على الستارة.

ولن تستطيع أن تتوقع أي شيء آخر من النساء إذا تأملت أن أعظم العقول في ذلك الجنس لم تستطع أن تنجز عملاً واحداً عظيماً فعلاً، وحقيقياً وأصيلاً، في الفنون الجميلة، أو قدم للعالم أي قيمة دائمة في أي مجال. ويكون هذا أوضح ما يكون في مجال الرسم، حيث هنَّ قادرات

68. Lettre a d'Alembert, Note xx.

69. [رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثة 14-34]

على إتقان آلياته كقدرتنا، ولذلك يجتهدن في تنميتها. وعلى الرغم من ذلك، ليس لديهن لوحةٌ عظيمة واحدة يفتخرن بها، وذلك لأنهن يفتقرن إلى موضوعية العقل التي لا يمكن الاستغناء عنها في الرسم، فهن لا يتجاوزن أبداً وجهة النظر الشخصية. وبالتماشي مع هذا فإن المرأة العادية ليس عندها استعدادٌ للفن على الإطلاق، لأن الطبيعة تتحرك بالتسلسل–saltum[70] non facit. وفي كتابه « examen de ingenious para las scienzias» – وهو كتاب مشهور على مدى الثلاثمئة سنة الماضية– ينكر هوارتي[71] على النساء امتلاكهن أياً من القدرات العليا. ولا يمكن الطعن في هذه الحقيقة باستخدام استثناءات خاصة وجزئية، فإذا نظرنا إلى النساء ككل، فإنهن، ويبقينَ، «فلستيون»[72] بكل تفاصيلهن، ولا يمكن علاجهن من ذلك. ولهذا، وبسبب الترتيب السخيف الذي يسمح لهنّ بالاشتراك مع الرجل في رتبته ولقبه، فإنهنَّ استفزازٌ مستمر لطموحاته الدنيئة. وعلاوة على ذلك، وبالضبط لأنهن «فلستيون»، فإن سيطرتهن الحالية وقدرتهن على تحديد الرائج وبالٌ على المجتمع الحديث. ويجب تبنِّي مقولة نابوليون «النساء ليس لهن رتبة» بصفتها المنطلق الصحيح لتحديد وضعهن في المجتمع، وفيما يخص صفاتهن الأخرى فإن شامفورت[73] يعطينا الملاحظة

70. ["الطبيعة لا تقوم بقفزات"، مبدأ عام جوهري في الفلسفة الطبيعية، كتب عنه ليبنتز، واعتمده داروين في أطروحته عن أصل الكائنات]

71. [Juan Huarte de San Juan (1529) طبيب وسيكولوجي إسباني، والكتاب الذي يشير إليه شوبنهاور (تفحّصُ المواهب في المهن) يعتبرُ من أولى المحاولات الجديّة لربط السيكولوجيا بالفيزيولوجيا]

72. [الفلستيون في العهد القديم هم من الشعوب التي حاربت مملكة اسرائيل، وتُستخدم مجازاً في العالم الغربي للتعبير عن عدم الثقافة والتنور: نقيض المثقف، وهو المعنى الذي يقصده شوبنهاور.]

73. [Nicolas Chamfort نيكولاس شامفورت (1741-1794): كاتب ومسرحي فرنسي.]

السليمة التالية: **إنهن مَكوَّنات ليتعاملن مع مواطن ضعفنا وأخطائنا، ولكن ليس مع منطقنا. والتفاهمات الموجودة بينهن وبين الرجال محدودة، ومن حيث العقل أو الأحاسيس أو الشخصية فالتفاهمُ قليل جداً**. إنهنَّ يشكلن الـ **sexus sequior** «**الجنس الثانوي**»، أدنى في كل مجالٍ من الأول، ويجب التعامل مع ضعفهنَّ بمراعاة، ولكن إظهار الإجلال لهن مبالغة في السخافة، ويَحطُّ من شأننا في عيونهن. عندما قسمت الطبيعة العرق البشري إلى قسمين فهي لم ترسم الخط في الوسط تماماً. وعلى الرغم من أنهما قطبان ومعاكسان لبعضهما بعضاً، إلا أن الفرق بينها ليس مجرد فرق نوعي، بل فرق كمي أيضاً.

هذه هي بالضبط وجهة النظر التي يتخذها القدماء تجاه المرأة، ووجهة النظر التي يتخذها الناس في الشرق الآن، وإن حكمهم فيما يخص موقعها الملائم أكثر صحة بكثير من حكمنا، الذي تغلب عليه الأفكار الفرنسية القديمة عن النُبل الرجولي «**gallantry**» وتبجيلنا المخزي للنساء، وهو أوجُ الغباء الجرماني-المسيحي. لم تجعل هذه الأفكارُ النساءَ إلا أكثر عنجهية وصلفاً، بحيث يستحضرُ المرء أحياناً صورةَ القرود المقدسة في «**بيناريس**»[74] الذين أصبحوا واعين للتقديس الذي يحيط بهم ووضعهم المنيع، ويعتقدون أن بإمكانهم فعل ما يشاؤون.

ولكن في الغرب تجدُ المرأةُ، وخصوصاً **السيدة**، نفسها في موقع فاسد، لأن المرأة، كما دعاها القدماء على نحو سليم **sexus sequior**،

74. [بيناريس أو فاراناسي: مدينة هندية على نهر الغانج]

لا تصلحُ بأي شكل لأن تكون موضع تبجيلنا وتشريفنا، أو أن ترفع رأسها أعلى من الرجل وأن تكون على قدم المساوة معه. وعواقبُ هذه المساواة المزيفة واضحة إلى حد كاف. وبالتالي فإنه من المرغوب جداً أن ننحي هذه (الرقم اثنين) من العرق البشري إلى مكانها الطبيعي، بحيث نُنهي هراء السيدة هذا، والذي لا يجعل آسيا بأسرها تضحك منا وحسب، ولكن كانت ستسخر منه اليونان وروما القديمتان أيضاً. من الاستحالة احتساب كل الفوائد التي سيمنحها ذلك لأنظمتنا الاجتماعية والمدنية والسياسية: لن يبقى هنالك ضرورة للقانون السالي[75]، إذْ يصبح بديهيةً لا لزوم لها. وفي أوروبا فإن السيدة، على حد هذا التعبير، هي كائنٌ يجب ألا يوجد مطلقاً، يجب أن تكون ربةَ منزل أو بتاً تسعى لأن تصبح ربة منزل، وينبغي تنشئتها لا لكي تكون متعجرفة، بل لتكون محترمة ومقتصدة ومطيعة. فإن وجود هؤلاء السيدات في أوروبا هو السبب في أن النساء في الطبقات الدنيا – أي الأكثرية العظمى من النساء – أكثرُ تعاسةً بكثير مما هنَّ عليه في الشرق. وحتى اللورد بايرون يقول: «فكرةُ حالة المرأة تحت حكمِ اليونانيين القدماء- ملائمة بما يكفي. الحالة الحالية: بقايا بربريات العصورُ الإقطاعية والفروسية – صنعيةٌ وغير طبيعية. ينبغي لهنَّ أن يعتنينَ بالمنزل – وأن يتمَّ إطعامهنَّ وإكساؤهنَّ جيداً – ولكن ليس أنْ يختلطنَ مع المجتمع. يجبُ تعليمهن جيداً أيضاً عن الدين – ولكن ليس ليقرأنَ الشعرَ أو السياسة – لا شيء سوى كتب الخشوع والطبخ. والموسيقى

---

75 [the Salic law قانون يعود أصله إلى 500 ميلادية، يتضمن حرمان النساء من وراثة العروش والأراضي الإقطاعية، والممتلكات الأخرى، ولم تزل آثاره حاضرةً في مَلكيات أوروبا – بدرجات متفاوتة – حتى يومنا هذا.]

**والرسم والرقص- أيضاً بعض البستنة والحرث من آن لآخر. لقد رأيتهن يصلحنَ الطريق في إيبيروس وينجحنَ في ذلك. لم لا أيضاً؟ بعض صناعة القش وحلب الأبقار؟»**[76]

إن قوانين الزواج القائمة في أوروبا تعتبر المرأة مساوية للرجل، أي أنها تبدأ من مكان خطأ. في القسم الذي نعيش فيه من العالم – حيث الزواج الأحادي هو القاعدة – يعني الزواج مقاسمة حقوق المرء مناصفةً، ومضاعفةَ واجباته. ولكن عندما منحت القوانين المرأة حقوقاً مساوية للرجل، فقد كان واجباً أيضاً منحها فكراً ذكورياً. ومن جهة أخرى كلما منحت القوانينُ النساء تشريفات وامتيازات تتجاوزُ ما منحتهن إياه الطبيعة، تضاءلَ عددُ النساء اللاتي يحصلن فعلاً على هذه الامتيازات، والباقي منهنَّ يُحرمن من حقوقهن الطبيعية بالقدر نفسه الذي تحصلُ فيه الأخرياتُ على حقوق زائدة. لأن مؤسسةَ الزواج الأحادي بقوانينِ الزواج التي تفرضها تمنحُ المرأة موقعاً غير طبيعي من الامتياز عبر اعتبارها وفي كل شيء متساوية تماماً مع الرجل، وهذه ليست هي الحقيقة بأي حال من الأحوال. وعندما يلاحظ ذلك الرجال الفطنون والحكماء، فإنهم كثيراً ما يترددون في تقديم تضحية بهذا الحجم ويمتنعون عن هذا الترتيب غير العادل إلى هذا الحد.

وبالتالي، بينما تتوفر الاحتياجات لكل امرأةٍ في الأمم ذات الزواج المتعدد، فحيث ينتصر الزواج الأحادي يكون عدد المتزوجات محدوداً،

---

76. [هذا المقطع مأخوذ من مُفكّرة بايرون، وليس من مقالٍ أو عملٍ معد للنشر، ولذلك صياغته متقطعة وضعيفة الترابط. المقطع موجود في: Letters and Journals of Lord Byron, [Bronner, 1830, p.454

ويبقى عدد كبير من النساء دون إقامة أو دعم، وهؤلاء يصبحن خاملات – في الطبقات العليا – على شكل خادمات مسنات بلا فائدة، وفي الطبقات الدنيا ينحدرن إلى العمل الشاق الذي يتلاءم معهن، وإلا يصبحن filles de joie (فتيات متعة)، حيثُ حياتهن محرومة من المتعة كما هي محرومة من الشرف. ولكنهن تحت الظروف نفسها يصبحن ضرورة، ويجري الاعترافُ بموقعهن على أنه يقدمُ خدمة خاصة هي دفعُ الإغواء بعيداً عن النساء اللاتي يفضلهنَّ القدر: النساءِ اللاتي وجدن، أو يأملن في أن يجدن، أزواجاً. في لندن وحدها ثمة 80 ألف مومس، وما هؤلاء؟ إلا نساءٌ خضعن تحت سلطة مؤسسة الزواج الأحادي وخرجن منه تعسات الحظ؟ إنَّ مصيرهنَّ مرعب: قرابينُ بشرية تقدم على مذبح الزواج الأحادي. إن النساء اللاتي أصفُ مصيرهن الرهيب هنا هنّ التعويضُ الحتمي عن السيدة الأوروبية بعنجهيتها وادعائها. تعددُ الزواج إذاً فائدة حقيقية للجنس الأنثوي إذا نظرنا إليه بشكل كلي. ومن وجهة نظر أخرى، ليس ثمة سبب حقيقي يمنع رجلاً تعاني امرأته من المرض المزمن – أو تعجز عن الحمل، أو كبرت تدريجياً في العمر بحيث ما عادت تلائمه – من أن يتخذ زوجة ثانية. إن الدوافع التي تدفع الكثيرين نحو التحول إلى المورمونية[77] تبدو نفسها الدوافع التي تحارب ضد مؤسسة الزواج الأحادي اللاطبيعية.

علاوة على ذلك، فإن منح الحقوق غير الطبيعية للمرأة قد فرض عليها واجباتٍ غير طبيعية أيضاً، وعلى الرغم من ذلك فإن التعدِّي على

77. [تخلى المورمون رسمياً عن تعدد الزواج باتفاقات تدريجية مع الحكومة الفدرالية الأميركية على مدى القرن التاسع عشر، وتم توقيع آخرها في 1904 والذي ينص على منع تعدد الزوجات على مستوى العالم.]

هذه الواجبات يجعلهن غير سعيدات. دعوني أفسر: إن الرجل كثيراً ما يفكر أن موقعه الاجتماعي أو المادي سوف يتأذى إذا تزوج، إلا إذا عقد تحالفاً عظيماً. وسيرغبُ إذاً في الحصول على امرأةٍ من اختياره بشروط غير شروط الزواج، بحيث يؤمنُ موقعها وموقع الأطفال. ومهما كانت هذه الظروف عادلة ومعقولة وملائمة، ومهما وافقت عليها المرأة بحيث تتخلى عن الكمية الكبيرة من الامتياز التي لا يقدمها سوى الزواج، فإنها إلى حد ما تخسر شرفها، لأن الزواج أساس المجتمع المتحضر، وستعيش حياة غير سعيدة لأن الطبيعة البشرية مكونةٌ بحيث نهتمُ بآراء الآخرين فينا بشكل غير متناسق أبداً مع قيمة هذه الآراء. ومن جهة أخرى، إنْ لم توافق، فهي تقع في خطر إما الاضطرار إلى الزواج من رجل لا يعجبها، أو أن تنتهي خادمةً عجوزاً بلا حيلة، لأن الفترة التي تمتلك فيها فرصة الاستقرار مدى الحياة قصيرةٌ جداً. وفيما يخص هذا الجانب من مؤسسة الزواج الأحادي، فإن أطروحة «توماثيوس»[78]، de Concubinatu بالغةُ الحكمة وتستحق القراءة، لأنها تظهر أنه، ومن بين كل الأمم في كل العصور وصولاً إلى الإصلاح اللوثري، كانت المساكنةُ مسموحةً، بل كانت مؤسسةً يعترفُ بها القانون إلى حد ما، ولا ينظرُ إليها بقلة احترام. وحده الإصلاح اللوثري هو الذي جرّدها من هذا الموقع، لأنه رأى في تقويضها حجةً إضافية لزواج رجال الدين، ومن ثم بعد ذلك، لم تجرؤ الكنيسة الكاثوليكية على أن تبقى متأخرةً عن نظيرتها في هذا المجال.

ليس هنالك فائدة من الجدال حول تعدد الزواج، ويجبُ النظر إليه

78. [Christian Thomasius (1655-1728) فيلسوف وقانوني ألماني.]

على أنه موجودٌ أصلاً بالفعل في كل مكان، والسؤالُ الوحيد هو كيف يمكن تنظيمه. أين لنا أن نجد أصلاً أيَّ أحاديين حقيقيين؟ كلنا نعيش في حالة من تعدد الأزواج، على الأقل لفترة ما، ومعظمنا طوال الوقت. ولذلك وبما أن الرجل يحتاج عدة نساء، فلا شيء أكثر عدلاً من السماح له - بل جعله واجباً عليه، أن يُعيل عدة نساء. سوف يعيد هذا المرأة إلى وضعها الطبيعي ككائن تابع. والسيدة - وحش الحضارة الأوربية والغباء الجرماني-المسيحي - سوف تختفي من هذا العالم، تاركة النساء، ولكنهن لن يبقين نساءً تعسات كاللاتي يملأن أوروبا الآن.

لدى الهندوس لا تكون المرأة مستقلةً أبداً، بل تبعا لـ«قانون مانو»،[79] فهي تحت سيطرة أبيها، أو زوجها، أو أخيها، أو ابنها. من المقذع بالتأكيد أن تُحرق أرملة نفسها على محرق جنازة زوجها، ولكنه مقذعٌ أيضاً أن تنفقَ مال زوجها على عُشاقها، هذا المال الذي اجتهد الرجل في جمعه طوال حياته، معزياً نفسه بأنه سوف يوفر الحياة لأطفاله. سعيدون أولئك الذين وجدوا حلاً وسطاً: (medium tenuere beati).

إن الحب الأول الموجه من امرأة لطفلها يشابه حب باقي الحيوانات الدنيا لأطفالها:هو حبٌ ذو طبيعة فطرية، وهو على ذلك يتوقفُ عندما لا يعود الطفل في وضع عاجز فيزيائياً. وبعد ذلك، فإن الحب الأول

---

79. الفصل الخامس، 148.
[Law of manu أو Manusmriti، أحد النصوص المقدسة في الهندوسية. يمكن إيجاد للقطع الذي يقتبس منه شوبنهاور مع شرح إضافي عنه في الصفحة 146 من:
Manu's Code of Law: A Critical Edition and Translation of the Manava-Dharmasastra, Patrick Olivelle, Oxford University Press, 2005.

ينبغي أن يحل مكانه حبٌّ أساسُه العادةُ والعقل، ولكن هذا كثيراً ما يخفقُ في الظهور، وخصوصاً إذا كانت الأم لم تحب الأب. إن حب الأب لابنه من نوع مختلف، ومرشح أكثر لأن يدوم، لأن أساساته تكمن في أن الرجل يجدُ في الطفلِ ذاتَهُ الداخلية، أي أنَّ حبَّهُ للطفلِ ميتافيزيقيٌّ في أصله. في جميع الأمم تقريباً، القديمة منها والمعاصرة، وحتى بين الhottentots، تعودُ الملكية إلى ذكور الذرية وحدهم، وفي أوروبا وحدها حصل الانفكاك عن هذه القاعدة، ولكن ليس بين النبلاء على أي حال. هل يعقلُ أنَّ هذه الأملاك التي كلَّفتِ الرجال سنيناً طويلة من التعب والجهد، واكتسبت بهذا القدر من المعاناة، ينبغي بعدها أن تؤول إلى أيدي النساء اللاتي يقمن بعدها، بقلَّة عقلهن، بتبذيرها في وقت قصير أو يخسرنها بغباء، لهو خطأ وظلمٌ حقيقي بقدر ما هو شائع، وينبغي منعه عن طريق وضع حد لحق المرأة في الميراث. في رأيي، إن أفضل ترتيب هو أن لا تتلقى النساء، سواء كن أرامل أو بنات، أي شيء أكثر من الفائدة مدى الحياة على ملكية مؤمنة بالرهن، ولا يصحُّ في أي حال من الأحوال أن تؤول لهنَّ الملكية بحد ذاتها، أو رأس المال، إلا في حال غياب جميع الوارثين الذكور. من يكسب المال هم الرجال وليس النساء، وتبعاً لذلك لا يحق للنساء الحصول على ملكية غير مشروطة له، ولسنَ مؤهلاتٍ لإدراته. عندما تؤول إليهن الثروة – بأي معنى حقيقي للكلمة، أي المال، أو البيوت أو الأرض – على شكل ميراث فلا يجب أبداً السماح لهن بالتصرف الحر فيها. وفي حالتهن ينبغي دوماً تعيين وصي، وبناءً على ذلك لا يصحُّ أبداً أن يُمنحن وصايةً كاملة على أطفالهن، وذلك أينما أمكن تجنب الموضوع. إن غرورَ النساء، مع أنه

ليس أكبر من غرور الرجال، يحملُ كل هذا الخطر لأنه يأخذ اتجاهاً مادياً بالكامل، إنهن مغرورات بجمالهن الشخصي، ومن ثم بالبذخ والمظاهر والألق. وهذا ما يجعل المجتمع مجال تألقهن. وهذا بدوره يجعلهن يمِلنَ نحو البذخ، ويزيدُ ذلك كلما نقصت قواهن العقلية. وعلى ذلك نجد كاتباً قديماً يصفُ المرأة بأنها ذات طبيعة بذخة على وجه العموم: [Gynae to synolon esti dapanaeron Physei][80]، ولكن في الرجال ينحو الغرورُ منحى المكاسب غير المادية، مثل العقل والتعلم والشجاعة.

في **عن السياسة**[81] يشرحُ أرسطو الأضرار التي تراكمت على الاسبارطيين بسبب رضوخهم المبالغ فيه لنسائهم، عبر إعطائهن حق الميراث والصِداق[82]، وقدراً كبيراً من الاستقلال، ويظهرُ كيف لعب ذلك كله دوراً كبيراً في سقوط اسبارطة. ألم يكن تأثير النساء في فرنسا، والذي تفاقم بثبات منذ زمن لويس الثالث عشر، ملاماً في الفساد التدريجي في البلاط والحكومة؟ والذي أتى بثورة 1789، والتي كانت كل التداعيات التالية لها ناتجة عنها؟ وبصرف النظر عن ذلك، فإن الموقع الفاسد الذي تتخذه النساء – والذي يظهر بأفقع الطرق في مفهوم **السيدة** في بلادنا – خللٌ جوهري في نظامنا الاجتماعي. وهذا الخلل، انطلاقاً من جوهره الأصلي، سينشر بالتأكيد تأثيره المدمر في كل الاتجاهات.

---

80. [Richard brunck, Gnomici poetae Graeci, I, 115 ]
81. الكتاب الأول، الفصل التاسع.
82. [Dower : يختلف عن الصداق في أنه مبلغٌ يحدده القانون ويدفعه الزوج أو عائلته في حالة وفاة الزوج]

يمكننا أن نرى جلياً أن المرأة بطبيعتها مجبولة على الطاعة، ويتضح ذلك من حقيقة أن كل امرأة تُوضعُ في موقعٍ غير طبيعي من الاستقلال التام تربطُ نفسها فوراً برجل ما، تسمحُ له أن يقودها ويحكمُها. هذا لأنها تحتاج سيداً ووصياً. إن كانت يافعة يكون حبيباً، وإن كانت مسنة يكون قساً.

# عن الضجيج

كتب **كانط** أطروحة عن **القوى الحيوية**، أما أنا فأفضل أن أكتب لها رثاءً. إن هذا الإظهار المفرط للحيوية، والذي يأخذ شكل الطرق والخبط وبعثرة الأشياء، قد عذبني يومياً وطوال حياتي. من الصحيح أن هنالك أناساً – بل الكثير من الناس – ممن يبتسمون لمثل هذه الأشياء لأنهم غير حساسين للضجة، ولكن هؤلاء هم أنفسهم بالضبط الناسُ الذين يكونون غير حساسين للنقاش، أو الفكر، أو الشعر، أو الفن، بكلمة: غير حساسين إزاء أي نوع من التأثير الفكري. إن سبب ذلك هو أن نسيج أدمغتهم ذو طبيعة قاسية وخشنة، ومن جهةٍ أخرى، فإن الضجة تعذيب للناس المفكرين. في السير الحياتية لكل الكتاب العظيمين تقريباً، أو في أماكن أخرى سُجِّلتْ فيها أقوالُهم، أجِدُ شكاوى من الضجة. في حالة كانط، على سبيل المثال، وغوته، وليختنبرغ، وجان بول[83]، وإذا صادف أن كاتباً لم يعبِّر عن نفسه في هذا الموضوع، فإن ذلك لأن الفرصة لم تُتح له.

يمكنني أن أشرح بغضَ الضجة كما يلي: لو قطعت ألماسةً كبيرة إلى

83 [Georg Chrstop Lichtenberg (1742-1799) فيزيائي وكاتب ألماني. Jean Paul (1763-1825) كاتب وروائي ألماني رومنسي]

قطعٍ صغيرة، فستفقد كل قيمتها، والجيشُ المقسَّمُ إلى أجساد الجنو
يخسرُ كل قوته، وكذلك الفكرُ العظيمُ ينحدرُ إلى درجة العادي ما إذ
يُقاطع ويُزعج، ويُلهى انتباهه عن المسألة التي أمامه، لأن تفوقه يكمن
في قدرته على التركيز، حيثُ يستحضرُ كل طاقته لتتعامل مع مسألة
واحدة، كما تركِّزُ مرآةٌ مقعرةٌ كل أشعةِ النور التي تصيبها في نقطة
واحدة. إن المقاطعة الضوضائية تعوّق هذا التركيز. ولذلك، لطالما
أظهرت العقول المتميزة كرهاً عميقاً للاضطراب من أي نوع، بصفته
شيئاً يتدخل في أفكارهم ويشتتها. وأكثر من أي شيء آخر، كانوا
كارهين للمقاطعة العنيفة بسبب الضجيج.

الناسُ العاديون لا تزعجهم الأشياء من هذا النوع كثيراً. إن أكثر
الأمم عقلانية وذكاء في كل أوروبا تضع القاعدة: (لا تقاطع!) Never
interrupt!، بصفتها الوصية الحادية عشر. إن الضجيج هو الأكثر
سفاهة من بين كل أشكال المقاطعة، فهو ليس مقاطعة وحسب، ولكنه
عرقلةٌ للفكر أيضاً. طبعاً، حيث لا يوجد ما يمكن مقاطعته لا تكون
الضجةُ مؤلمةً على نحو خاص. يحصل أحياناً أن ضجةً بسيطة ولكن
مستمرة تثابرُ على إزعاجي وتشتيتي مدةً من الزمن قبل أن أعيَ
وجودها، وكل ما أشعر به هو زيادة في تعب الفكر – كما لو أنني كنت
أحاول أن أمشي حاملاً أثقالاً في رجلي، ومن ثم أخيراً اكتشف ما هي
الضجة. فلأنتقلْ الآن من الحديث عن الأصل للحديث عن الفروع
بأصنافها: إن أكثر أنواع الضجيج قلةً في الاحترام، وما لا يمكن عذره
هي فرقعةُ السياط، وهي شيءٌ جهنمي حين يحصلُ في شوارع مدينة
ضيقة يتردّدُ فيها الصوت. وأنا أُدينها بصفتها تمنعُ قيامَ حياة مسالمة، إنها

تضعُ حداً لكلِّ التفكير الهادئ. والحال القائمة التي يسمح فيها أصلاً بفرقعة السياط تدُلُّني بأوضح طريقة على صفة البشرية اللاعقلانية واللافكرية. لا أحدَ عنده شيءٌ يشبه الفكرة في رأسه يستطيعُ أنْ يتجنبَ الشعورَ بألمٍ حادٍ من هذه الفرقعة المفاجئة والحادة والتي تشل الدماغ، وتمزق خيوط التأمل، وتقتل الفكر. وفي كل مرة تحصل فيها هذه الضجة لا بد لها أن تزعج مئة شخص يستعملون عقولهم في شغل من نوع ما، مهما كان هذا الشغل تافهاً، وتأثيرها على المفكر معيبٌ وكارثي، فتقطع أفكاره إرباً، كما تفصلُ فأس الإعدام الرأس عن الجسد. ليس ثمةَ صوتٌ مهما بلغت حدته ينغرزُ بهذه الحدة في الدماغ مثلَ فرقعة السياط اللعينة، فأنت تشعرُ بلسعة الصوت في رأسك، وتؤثر في دماغك بالطريقة نفسها التي يؤثر فيها اللمس بالنبتة الخجولة، وللمدة نفسها من الزمن.

مع جليل الاحترام لعقيدة الضرورة «doctrine of utility» المقدسة، فإنني لا أستطيع أن أرى لماذا يحق لشخصٍ يقود عربةً من الحصى أن يقتل أفكاراً تنبعُ من ألفِ رأس، وفي مهدها، وهو عددُ الذين سيزعجهم واحداً تلو الآخر في أثناء مروره نصف ساعة في بلدة. الطَّرْقُ، نباحُ الكلاب، بكاءُ الأطفال: كلها أشياء فظيعةٌ على الأذن، ولكن الذي يغتالُ الفكر حقاً هو فرقعةُ السوط، فهي توجدُ لكي تُفسِدَ كل لحظة سعيدة من التفكير الهادئ التي قد يستمتع بها أحدهم بين الفينة والأخرى. لو أن السائس لا يملك طريقة أخرى لقيادة حصانه سوى هذه الضجة المخزية، لكان من الممكن عذرها، ولكن الموضوع بالعكس تماماً. ففرقعة السياط اللعينة هذه ليست غير ضرورية

وحسب، بل أيضاً بلا فائدة. إن هدفها هو إحداثُ تأثيرٍ في عقل الحصان، ولكن عبر الإساءة المستمرة إليه، ويعتاد الحيوانُ على الصوت، فيقعُ على مشاعر متبلدة ولا يبقى له أي تأثير. فالحصان لا يسرع تحت تأثيرها، ولنا مثالٌ في ذلك في فرقعة سوط سائق عربة الأجرة المستمرة، بينما هو يمضي ببطءٍ باحثاً عن زبون. ولو أنه لمس حصانه لمسةً بسيطة بالسوط لكان لها تأثيرٌ أكبر بكثير. ولو افترضنا على أي حال أنه من الضرورة القصوى فرقعة السوط للحفاظ على عقل الحصان حاضراً دوماً، فإنه من الكافي إحداث جزءٍ من المئة من الصوت، لأنه من المعروف جيداً أن الحيوانات حساسةٌ جداً لأقل المؤثرات السمعية والبصرية، وهي ترى وتسمعُ أشياء لا ندركها نحن. والأمثلة الاكثر وضوحاً على ذلك نراها في الكلاب المدربة وطيور الكناري.

من الواضح، إذاً، أننا هنا نتعامل مع حالة من الفجور البحت، بل مع حالة من التحدي من قبل أعضاء المجتمع الذين يعملون بأيديهم ضد أولئك الذين يعملون بعقولهم. والتسامحُ مع مثل هذا الشر في بلدةٍ شيءٌ بربريٌ وغير عادل، ويزيد من ذلك أن الموضوعَ بأكمله قابل للحل عبر بيان من الشرطة يُلزِمُ بوضع عقدة في آخر كل سوط. ليس ثمة أذىً في لفتِ انتباه الغوغاء إلى أنَّ الطبقات التي فوقهم تعمل بعقولها، لأنك ستجدُ أن أي عملٍ عقلي هو عذابٌ فظيع لو جرَّبتَ فعله في الشارع. إن شخصاً يقود في الشوارع الضيقة لبلدة محتشدة بعربة بريد أو أُجرة تقودها أحصنة ويستمر في فرقعة سوطٍ طولهُ عدَّةُ ياردات بكل قوتهِ ينبغي أن يجري إيقافه في لحظتها وأن يتلقى خمس ضربات قوية بالعصا.

وكلُّ اجتماعات دعاة الإحسان في العالم، ومعهم كل المشرعين الذين

يروِّجون لإلغاء العقاب الجسدي بشكل كامل ومنعه بالقانون- كل ذلك لن يغير من رأيي هذا! وهنالك شيء أكثرُ شناعةً مما ذكرته توا. كثيراً ما ترى سائسَ عربةٍ يمشي وحيداً في الشارع ودونَ أيِّ أحصنة ولكنه لا يتوقف عن الفرقعة بسوطه بلا توقف. فقد أصبح اللعين معتاداً على فعل ذلك بسبب التسامح غير المبرر لممارسته. لقد أصبحنا نعاملُ جسدَ الإنسان وحاجاته باحترام رقيق في كل مكان اليوم، فهل ينبغي إذاً على العقل المفكر أن يكونَ الشيءَ الوحيدَ الذي لا يحصلُ على أيَ إجراء لمراعاته أو حمايته؟ ناهيك عن احترامه؟ سائسو العربات والحمالون وحاملو البريد: هؤلاء الوحوش التي تحملُ أعباء الإنسانية، فلنعاملهم – في كل الحالات – بعدالة وإنصاف واهتمام، وبمراعاة، ولكن لا يجوزُ أن يُسمح لهم بأن يقفوا في طريق الجهود العليا للإنسانية عبر الضوضاء المتفلتة. كم من الأفكار العظيمة والرائعة خسرها العالم بسبب فرقعة السوط؟ لو أن لي اليد العليا في الشأن، لحشرتُ في عقولِ هؤلاء السائسين علاقةً وثيقةً بين فرقعة السوط وبين أن يُضربوا به.

دعونا نأمل في أن الأممَ الأكثر ذكاءً ورفعةً سوف تباشرُ هذه القضية، وأن الألمان سيحذون حذوها في ما بعد.[84] وحتى يحصل ذلك لعلنا نقتبس ما يقوله توماس هود[85] عنهم: **بصفتهم أمّةً موسيقية، فهم أكثرها ضوضاء من بين من التقيت بهم.** وكونهم كذلك لا يعود إلى أنهم مولعون بالضوضاء أكثر من غيرهم – إذْ سينكرون ذلك لو سألتهم –

84. تم منع فرقعة السياط في نورمبرغ – حتى بدون لمس الحيوان – في ديسمبر، 1858. (كما ينص إعلان هيئة حماية الحيوانات في ميونخ)

85. [Thomas Hood: (1799-1845) شاعر ومؤلف إنجليزي.]

بل لأن أحاسيسهم متبلدة. وبالتالي لا يؤثر فيهم سماع الضجة بالقدر نفسه، ولا تُشتتُ قراءتهم وتفكيرهم، ببساطة لأنهم لا يفكرون، بل يدخنون، وهو قوتُ تفكيرهم. إن التسامحَ العام مع الضجيج غير اللازم – صفق الأبواب مثلاً، وهو شيءٌ قليل الأدب وينبعُ من سوء التربية – دليلٌ مباشرٌ على أن العادة السائدة للعقل هي الخمول وقلة الفكر. في ألمانيا يبدو أن الموضوع جرى ترتيبه بحيث لا يفكرُ أحد كُرمى لمجرد الضجة، وأحد أشكال ذلك على سبيل المثال هو قرع الطبول الذي يستمرُّ بلا أي سبب على الإطلاق.

أخيراً وفي ما يخص الأدب المحيط بموضوع هذا الفصل، فليس عندي إلا عملٌ واحدٌ أوصي به، وهو رسالةٌ شعرية في قالب terza rima [86]، كتبها الرسام الإيطالي المشهور برونزينو[87]، وعنوانها De'Romori: a Messer Luca Martini. وهي تعطي وصفاً دقيقاً للتعذيب الذي يتعرضُ له الناسُ بسبب الأنواع المختلفة من الضجيج في قريةٍ إيطالية صغيرة. وهو مكتوب بأسلوبٍ تراجيدي-هزلي، وممتع جداً. يمكن أن تجد الرسالة في Opere burlesche del Berni, Arentino ed altri, vol. II, p.258. وهو على ما يبدو منشور في "أوترخت" عام 1771.

86. [قالب شعري إيطالي من عصر النهضة يتألف من ثلاثيات ذات قوافي من نمط ABA ثم BCB ثم CBC وهكذا دواليك.]

87. [Agnolo di Cosimo (1503-1572)، رسام وشاعر إيطالي عُرِفَ بإسم برونزينو، عاش وعمل في فلورنسا.]

# بعض الحكم

(1)

في حقل من الذرة اليانعة، وصلتُ إلى مكانٍ دهسته قدم قاسية، وفي أثناء تطلعي إلى السوق التي لا تحصى، وكل واحدةٍ من هن تشبه أخواتها حاملةً ثقل الكوز ومنتصبة، رأيتُ الكثير من الأزهار المختلفة، حمراء وزرقاء وبنفسجية. كم بدت جميلة وهي تنمو هنا بكل طبيعية بأوراقها الخضراء الصغيرة! ولكنني فكرت: إنها بلا فائدة حقاً، فهي لا تحمل فاكهة، ليست إلا أعشاباً ضارة، يُسمح لها بالبقاء لصعوبة التخلص منها. على الرغم من ذلك، لولا هذه الزهور لما كان ثمة ما يَسحَرُ العينَ في وحشة سوق الذرة. إنها تحملُ رمز الشعر والفن، وهي تلعب في الحياة المتحضرة – القاسية، ولكنها ذات فائدة، وليست عديمة الثمر – نفسَ الدور الذي تلعبه الزهور في حقل الذرة.

(2)

هنالك مناظر بديعة فعلاً في العالم، ولكن الأشكال البشرية فيها قبيحةٌ أينما حلّت، ويستحسن ألا تطيلَ النظر إليها.

(3)

ينبغي أن تُستعملَ الذبابةُ كرمزٍ للوقاحة والفجور، فبينما كل المخلوقات الأخرى تهابُ الإنسان أكثرَ من أي شيء آخر، وتهربُ حتى قبل أنْ يقتربَ منها، فإن الذبابةَ تقف على أنفه.

(4)

مر صينيان يسافران في أوروبا بمسرحٍ للمرة الأولى. أحدهما لم يفعل شيئاً سوى دراسة الآلات، ونجحَ في استيعاب كيف تعمل. الثاني حاول أن يفهم معنى القطعة على الرغم من جهله باللغة. هنا لديكَ عالم الفلك والفيلسوف.

(5)

الحكمة النظرية وحسب والتي لا تُمارس، مثل الوردة المزدوجة: تبهجُ الآخرين بألوانها وعطرها الجميل، لكنها تذوي وترحل بلا بذور.

لا وردة بل شوك. صحيح، ولكن كثيرٌ من الأشواك بلا ورود.

(6)

وقفت شجرة تفاح وارقة الأغصان في عز ازهرارها، وخلفها مباشرة رفعت شجرة شوحٍ رأسها الغامق المستدق. انظري إلى آلاف البراعم البهيجة التي تغطيني في كل مكان، قالت شجرة التفاح، ماذا عندك لتريني إياه في المقابل؟ إبر خضراء غامقة!

هذا صحيح، ردت شجرة الشوح، ولكن حين يأتي الشتاء، سوف تتجردين من جمالك، وأنا سأبقى كما أنا الآن.

(7)

مرة من المرات كنت أدرسُ النباتات تحتَ شجرة سنديان. وجدتُ بين مجموعة من النباتات المتداخلة نبتةً غامقة اللون، ذاتَ أوراق مغلقة بإحكام وساق مستقيمة جداً وقاسية. عندما لمستُها قالت لي بصوت حازم: **دعني، أنا لست لمجموعتك كهذه النباتات التي أعطتها الطبيعة سنةً واحدة من الحياة. أنا سنديانةٌ صغيرة.**

وكذلك الإنسان الذي سيدوم تأثيره آلاف الأعوام. في طفولته، وشبابه، وحتى في نضجه الكامل، بل طوال حياته، يمضي بين صحبه مشابهاً لهم وكأنه غير مهم مثلهم. ولكن دعه وحده، سيأتيه الزمنُ ومعه أولئك الذين يعرفون كيف يقدرونه، فهو لن يموت كالآخرين.

(8)

إن الإنسان الذي يطير في منطاد لا يشعر بأنه يعلو، بل يرى الأرض تغرق عميقاً تحته. كيف يكون ذلك؟ هذا سرٌّ لا يفهمه إلا الذين يتشاركون في شعوره.

(9)

إن تقديرك لحجم شخص يتأثر بالمسافة التي تقف فيها بعيداً عنه بطريقتين متعاكستين: فيما لو كنت تقدر حجمه الجسدي أو الفكري. الأول يبدو أصغر كلما ابتعدت، والثاني يبدو متضخماً.

(10)

الطبيعة تغطي كل أعمالها بطلاء من الجمال، كالزغب الرقيق الذي كما لو أنها تتنفسه على سطح دراقة أو خوخة. الرسامون والشعراء يكرسون

أنفسهم لإزالة هذا الطلاء، لتخزينه، ليمنحونا إياه فنستمتع به وقت نشاء. نحن نشربُ عميقاً من هذا الجمال قبل أن ندخلَ الحياة نفسها، وعندما نرى لاحقاً أعمال الطبيعة بأنفسنا، يختفي الطلاء: فقد استخدمه الفنانون واستمتعنا به مُقدماً. ولذلك يبدو العالمُ أحياناً قاسياً وخالياً من السحر، بل مقرفاً في الواقع. لكان من الأفضل تركُنا نكتشف الطلاء وحدنا. ويعني هذا أننا يجب ألا نستمتع به دفعة واحدة وبكميات كبيرة. يجب أن لا نحصل على لوحات مكتملة، ولا قصائد مثالية، بل يجب أن ننظر إلى كل الأشياء تحت ذلك النور البهي الممتع الذي لا يزال يراها تحت بريقه طفلُ الطبيعة أحياناً: شخصٌ لم يَستَبِقْ مُتعَه الجماليةَ بمساعدة الفن، ولا أخذَ سحر الحياة قبل أوانه.

(11)

تحتشدُ البيوتُ المبنية حول كاتدرائية 'ماينتس' بحيثُ لا توجد بقعة واحدة تراها منها كاملة، وهذا يشابه كل شيء عظيم وجميل في العالم. فهو ينبغي أن يوجد من أجل نفسه وحسب، ولكن قبل وقت طويل يُساء استعماله لخدمة أغراض خارجية. يأتي الناس من كل اتجاه ليبحثوا فيه عن دعم ورعاية لأنفسهم، ويحُولون دونه، ويفسدون تأثيره. من المؤكد أنْ لا شيء مفاجئ في ذلك، لأنه في عالم من الاحتياج واللاكمال يجري الاستحواذُ على كلِّ ما يمكنُ استخدامه لإشباع الرغبة. ولا يستثنى شيءٌ من هذه الخدمة، ولا حتى الأشياء نفسها التي لا تظهر إلا عند غياب الاحتياجات: أي الجمال والحقيقة اللذان يُطلبان من أجل ذاتهما.

يتضح ذلك، ويثبت أكثر، في حالة المؤسسات، كبيرةً كانت أم

صغيرة، ثرية أم فقيرة، والتي تتأسس - في أي قرنٍ وأي أرض - بهدف الحفاظ على المعرفة البشرية والدفع بها قدماً، وعلى نحوٍ عام لتُقدِّمَ الدعمَ للجهود الفكرية التي تزيدُ من نُبل الفصيلة. أينما كانت هذه المؤسسات، لن يطول الزمنُ قبل أن يتسلل إليها أناسٌ ليستحوذوا على مكاسبِ ذلكَ الهدف، وذلك بذريعة المحافظة على الهدف نفسه، كي يُشبعوا غرائز معينة قاسية ومتوحشة فيهم. ولذلك فإن عندنا الكثير من الدجالين في كل فروع المعرفة. الدجال يأخذ أشكالاً متعددة تبعاً للظروف، ولكنه في لبِّ الأمر رجلٌ لا يكترث إطلاقاً بالمعرفة من أجل المعرفة، ولا يسعى إلى تحصيل ما يشابهها إلا ليستعمله في أهدافه الشخصية، والتي هي دوماً أنانية ومادية.

(12)

كل بطلٍ شمشون. الرجل القوي يخفقُ أمام مخططاتِ الضعفاء الكثيرين، وإذا فقد كل صبره يسحقهم في النهاية ويسحق نفسه. أو يكون مثل «جوليفر» في «ليليبوت»، يتكاثرُ عليه عددٌ هائل من الرجال الصغار فيغلبونه.

(13)

أعطت أمٌّ أطفالها حكايات «إيسوب» ليقرؤوها، أملاً في تعليمهم وتحسين عقولهم، ولكنهم سريعاً ما أتوا بالكتاب، وقال الكبير الذي هو أحكمُ من عمره: ليس هذا بكتابٍ لنا، فهو طفوليٌ وغبيٌ زيادة على اللزوم. لا تستطيعين إقناعنا أن الثعالب والذئاب والغربان قادرةٌ على الكلام، لقد تجاوزنا هذا النوع من القصص.

في هؤلاء الصغار المفعمين بالأمل عندنا عقلانيو المستقبل المتنورون.

(14)

تجمع عدد من الشياهم سوياً طلباً للدفء في يومٍ باردٍ من الشتاء، ولكن عندما بدؤوا ينخزون بعضهم بعضاً بإبرهم اضطروا إلى التفرق. لكن البرد جمعهم مجدداً، فتكرر الشيء نفسه تماماً. في آخر المطاف، وبعد التجمع والتفرق مراراً وتكراراً، اكتشفوا أن الأفضل لهم هو أن يبقوا على مسافة صغيرة من بعضهم بعضاً. وبنفس الطريقة تدفع حاجات المجتمع بالشياهم البشرية إلى التجمع، ولا يكون جزاء ذلك إلا نفورهم من بعضهم بعضاً جراء صفات طبيعتهم الواخزة والبشعة. المسافة المعتدلة التي يكتشفون في آخر المطاف أنها الوضع الوحيد المقبول هي نظامُ التهذيب والأخلاق الحسنة، وأولئك الذين يتجاوزونها يُقالُ لهم – بالعبارة الإنجليزية – Keep their distance (حافظوا على المسافة). ضمن هذا الترتيب، لا تُشبع الحاجة إلى الدفء إلا على نحوٍ بسيط وغير كامل، ولكن الناس لا تُوخز. ولكن من يتمتع بقدر جيد من الحرارة في داخله يفضلُ البقاءَ خارج المجتمع، حيث لا أحد يخزه ولا يخزُ أحداً.

آرثر شوبنهاور

# تهمة اليأس

الخلود والانتحار، موقعُ المرأة وغريزة الرّجل، السيكولوجيا البشرية ومعاناتها، سعادتها في هذا العالم: هذه النصوص المنتقاة لا تحمل في طيّاتها صرامة الأطروحات الفلسفية البحتة التي كتبها شوبنهاور، وإنّما هي تشريح للعالم كما رآه من عيون تلك الفلسفة البحتة؛ هي إسقاطات قناعاته على طريقة حياتنا الفاسدة، وتوجيه للطريقة التي ينبغي أن نعيش من خلالها. فكما يقول لنا: «الحكمة النظرية التي لا تمارس مثل الوردة المزدوجة، تبهجُ الآخرين بألوانها وعطرها الجميل، ولكنها تذوي وترحل بلا بذور».

وسواء اتّفق القارئ أم اختلف مع شوبنهاور -وهناك الكثير ممّا يستحق الاختلاف معهُ- فإنّه ولا شك سيجدُ متعة في النّور الساطع الذي يسلطهُ شوبنهاور على حياتنا اليومية: نورٌ يشبهُ ما يستعمله الجراحون قبل أن يعملوا أيديهم في جسد العلل.

بين دفّتي هذا الكتاب ما يستحق التّشبع من هذا التنوير، حتّى لو اختلف القارئ حول ما يبدو جليًّا تحتَ هذا الضّوء.

**النّاشر**



ISBN 978-603-03-0398-4
9786030303984

WWW.PAGE-7.COM

مكتبة الرافدين للكتب
الالكترونية
https://t.me/ahn1972